تجليات التكرار في قصائد مختارة من رثاء المدينة الخريمي وابن الرومي أنموذجاً

دكتور

الشافعي جـــلال الشافعي نقريش

مدرس الأدب والنقد

جامعة الأزهر

المقدمة

الحمد لله على جزيل آلائه، وجميل نعمائه، سبحانه أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، بلسان عربي مبين، فأصبحت به الحجة ناصعة، والمحجة واضحة، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وقائد الغر المحجلين؛ سيدنا محمد بن عبدالله سيد العرب والعجم .

وبعـــــــد ..

فالرثاء من فنون الشعر المرتبطة بالنفس، والعالقة بالمشاعر والأحاسيس، وهى ألصقها بالإنسان، وأكثرها صدقا للعاطفة، وقد ينتاب الإنسان لحظات من عدم الصدق في رثاء من لا يتصل به بسبب، أو يمت إليه بصلة، فإن رثاء المدن يتميز دائما بالصدق الفني، فقد اتجه إليه الشاعر بنفسه، وانحاز إليه بعواطفه الملتاعة، وأحاسيسه الملتهبة، فقاضت ألما وحزنا وبكاءً، ووصفا لحالة الوطن قبل الخراب وبعده.

ورثاء المدن موضوع شعري تولد عن البيئة الجديدة، والحضارة الجديدة اللتين عايشهما الشعراء في العصر ـ العباسي، فنحن نعرف أن العصر ـ العباسي قد شهد تقدماً ملموساً في المجال العمراني والحضاري، فبنيت المدن، وشيدت القصور وأقيمت الحدائق والبساتين، وانتشرت البرك والرياض، وكان ذلك بتأثير الفرس الذين كان لهم دور بارز في قيام الدولة سياسيا وعسكريا، فأصبح لهم نفوذ كبير في الدولة، وتولوا أعلى مناصبها ومعروف أنهم كانوا أصحاب حضارة، ولهم تراثهم الثقافي وعاداتهم وتقاليدهم، فبدأت تلك الموروثات في الظهور والانتشار مع تصدرهم للزعامة السياسية في مطلع العصر ـ العباسي، ولم تلبث بغداد أن صارت معرضا للحياة على النمط الفارسي في الملبس والمسكن وألوان الأطعمة والأشربة وفى الحفلات والأعياد.

والحق أن رثاء المدن في ذلك العصر ـ يعكس لنا أمرين مهمين تجدر الإشارة إليهما هنا:

أولهما: اضطراب الحياة السياسية في الدولة العباسية، فعلى الرغم من قوة الخلفاء في القرن الأول لحكم العباسيين، وإحكام قبضتهم على مقاليد الأمور، على الرغم من ذلك لم يخل العصر ـ من فتن وثورات ضد العباسيين كان لها أثرها فيما حل ببعض المدن العباسية من دمار وخراب وحريق، كما لا ننسى ضعف الخلفاء، وسيطرة العنصر ـ التركي على مقاليد الأمور في القرن الثاني لحكم بني العباس، والفساد الذي شاع في عهدهم في كثير من المدن العباسية، مما أثار حفيظة الشعراء، وحرك قرائحهم، فجادت بأروع رثاء، وأصدق تصوير لنكبات المدن العباسية.

آخرهما: الارتباط الوجداني الوثيق بين الشعراء وبين واقع عصرهم بكل أبعاده وجوانبه، حين رثوا تلك المدن التي كانت آمنة مطمئنة ينعمون فيها برخاء العيش، ولذة الحياة، فأتاها الدمار والخراب من كل مكان من جراء الفتن والثورات التي شهدها العصر ـ، وهذا يعكس لنا محاولة الشعراء الجادة التجديد في الموضوع الشعري بما يناسب حياتهم وذوقهم وعصرهم.

ومما دفعني إلى الحديث عن التكرار في رثاء المدينة:

١ – العلاقة المشتركة بين التكرار والرثاء

"لأن أول ما تكرر فيه الكلام باب الرثاء، لمكان الفجيعة، وشدة قرحة المتفجع، حيث التمس من الشعر وجدًا"(١).

(١) انظر العمدة في محاسن الشعر في آدابه ونقده- ابن رشيق القيرواني – الطبعة الثانية- تحقيق/ محمد محي عبد الحميد- المكتبة التجارية، ١٩٦٣م ص٧٦ .

٢- اختلاف الظروف البيئية، فبعد الحضارة والرقي حل الخراب والدمار بالعراق ، فرثي أبو يعقوب بغداد وابن الرومي بكي البصرة، بقصيدتين رائعتين هما خير شاهد للعصر العباسي في رثاء المدينة.

٣-الصدق الفني والشعوري لدى الشاعرين في رثاء المدينة، فالمصاب الذي حل بالمدينتين كان ذا وقع أليم عليهما، حيث خيم الحزن على قلبهما طوال القصيدتين على امتدادهما، ففاضت الدموع الصادقة، والعاطفة الشاجية، والأحاسيس الراقية.

٤- إبراز العلاقة بين الذات الشاعرة التي يمثلها الشاعران ومتغيرات عصرهما.

ولما كانت البلاغة بفنونها وثيقة الصلة بالشعر، فهي تكشف عن حالة المبدع، وترشد ذاته، وتدل على خبيئته، ويعبر بها عما يحس المتلقي ويشعر، ولا يجد في نفسه المقدرة على التعبير، فإن هذا البحث قد أبان عن صلة التكرار كسمة بلاغية بالشعر في فن رثاء المدن، فكشف عن نفوس الشعراء الملتاعة، ومشاعرهم المهتاجة، وأحاسيسهم المضطربة.

وقد استخدمت المنهج التاريخي في بحثي، الذي اقتضت ظروفه أن أقسمه إلى مبحثين يسبقهما مقدمة وتتلوهما خاتمة؛ فالمقدمة أذكر فيها الدوافع والأسباب التي جعلتني أتخذ من هذا الموضوع ميداناً لبحثي مع الإشارة إلى المنهج الذي اتبعته في دراستي، وخطة البحث:

ثم كان المبحث الأول: نظرات تحليلية في القصيدتين: وفيه عرضت لرثاء الخريمي لبغداد، ثم ابن الرومي ورثاء البصرة.

أما المبحث الثاني: مستويات التكرار في القصيدتين وذكرت فيه تكرار الصوت من حرف أو أداة، وتكرار الكلمة من اسم وفعل أو ألفاظ الموت والتكرار البديعي

من جناس أو طباق أو رد العجز على الصدر بالإضافة إلى تكرار الصور لدى الشاعرين.

وأخيرا كانت الخاتمة: وهى تحوي تركيزاً موجزاً لاستجلاء النتائج التي انتهيت إليها من خلال البحث، ثم ثبت للمصادر والمراجع والفهرس.

وبعد فأرجو لهذا البحث أن يكون إحدى حلقات البحوث في النقد الأدبي، بما أعنيه من هذه العبارة من اجتهاد قد يجانبه الصواب، ولكنى سرت فيه يحدوني أمل، وهو محاولة الوصول إلى بعض درجات الارتقاء في سلم العلم.

وبعد ذلك لا أعفى نفسي- من الخطأ والنسيان فهما من سمات البشر-، وها أنا ذا أصرح بعجزي وأنطق بقصوري، فالكمال لله وحده، ولكنه التطفل على موائد العلماء، فإن كان في بحثي من قصور فهو منى ولا أعفى من ذلك نفسي-، وإن كان من توفيق فذلك فضل من الله تعالى ومنة.

والله الموفق من وراء القصد

الباحث

توطئـــــــة .

بـدأ العـرب في العصـر العبـاسي يتـأثرون بـالألوان الحضـارية الجديـدة ويرتبطـون بهـا وجـدانيا، ومـنهم الشـعراء الـذين تعلقـوا تعلقـا شـديدا بالحيـاة الجديـدة ويصـطنعونها بمظاهرها الحضـارية في أشـعارهم، فـأحبوا مـدنهم حبـاً يفـوق الخيـال ، لأن نمـو المدينـة في العصر ـ العبـاسي جعلهـا تتضـمن في وقـت واحـد عوامـل جـذب وعوامـل نفـير، وهـذه في الحقيقـة صـفة طبيعيـة لكـل مدينـة كبـيرة تسـتوعب كـل وسـائل الثقافـة وألوانهـا، وكـل أسباب الحضارة والتمدن، ومـن ثـم رأينـا كيـف أقبـل بعـض النـاس عـلى مـدحها، وكيـف ذهب بعضهم إلى هجائها.

ومهـما يكـن مـن أمـر المـدح والهجـاء، فـإن المدينـة كانـت في العصر ـ العبـاسي قـد صـارت تمثـل كيانـا لـه معنـى في نفـوس أهلهـا وإن أهلهـا قـد صـاروا تـربطهم بهـا روابـط كثـيرة، ماديـة ومعنويـة، وقـد تولـد في نفوسـهم. نتيجـة لـذلك- شـعور إنسـاني نبيـل إزاء المدينة عـبروا عنـه في صـدق وحـرارة عنـدما رأوا الخـراب والـدمار يحـل بهـا، كـأنهم فقـدوا بهـا عزيـزًا لـديهم. والحـق أن ارتبـاط الشـعراء بالمدينـة في هـذا العصر ـ المتقـدم حضـاريا وعمرانيا، دفعهم إلى الحديث عن المدينة في بعض أغراضهم الشعرية، منها:

- مدح المدن.

لا شـك في أن هـذا الموضـوع الجديـد " كـان اسـتجابة لتلـك النقلـة الحضـارية الضـخمة مـن الخيـام ومضـاربها والصـحراء وهجيرهـا، إلى القصـور المشـيدة والحـدائق الغنـاء، ومـا إلى ذلـك ممـا حملتـه تلـك النقلـة، وأدى إلى الإحسـاس بالوطنيـة والشـعور بـالوطن، وقـد كـان مفهـوم الـوطن غـائما وغـير محـدد في الـتراث الشـعري السـابق للعصر ـ العبـاسي؛ حتـى أصـبحت المـدن تضـم عوامـل الجـذب والمتعـة، فاتجـه إليهـا الشـعراء، واسـتقروا فيهـا، ونعمـوا بـما فيهـا مـن ملـذات ونعـيم فـارتبطوا وجـدانيا بتلـك المـدن،

فاندفعوا إلى الإشادة بها، وتعداد محاسنها، وبيان أفضالها في أشعارهم، فخرج لنا لون جديد في فن المدح ويعرف بمدح المدن والقصور.

وكان أكثر هذا النوع من المديح يدور حول الكوفة أو البصرة أو بغداد بوصفها المراكز الرئيسية للحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية النشطة، وخاصة بالنسبة للشعراء المادحين، ومن ذلك قول عمارة بن عقيل في مدح بغداد:

أعانيت في طول من الأرض والعرض .. كبغداد دار إنها جنة الأرض

صفا العيش في بغداد واخضر عوده ... وعيش سواها غير صاف ولا غض"(١)

وفى تقديري أن مدح المدن والقصور في العصر العباسي إنما هو امتداد لمديح الشاعر الجاهلي ومن بعده الصحراء، والتغني بها في شعره، لأنها كانت مكان إقامته، ومستقر حياته، فارتبط بها وجدانيا، فجعل لها مكانا في كل أشعاره على اختلاف فنونها وأغراضها، وكذلك امتداد لمديحه دياره وديار أحبته في أماكن التجمع الحضري في العصور السابقة.

- هجاء المدن.

وهو لون من ألوان الهجاء الجديدة في العصر العباسي، حيث تركت طبيعة الحياة الحضارية، والتقدم العمراني، بجانب حياة اللهو والعبث والمجون، آثارها القوية في الشعراء وغيرهم، فتولد لنا لون جديد هو هجاء المدن، "فالشاعر الذي

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري. د/ محمد مصطفى هدارة ، ط دار المعارف القاهرة ١٩٦٣م، ص ٤٠١ .

ينزح من البادية إلى المدن قد لا يجد ضالته المنشودة في هذه المدن فيغادرها صاباً جاماً في غضبه عليها، هاجيا لها هجاء مقذعا، فيقول:

أيا من كنت بالبصر ∴ ة أصفى لهم الودا

ومن كانوا موالى ∴ ومن كنت لهم عبدا

ومن قد كنت أرعاه ∴ وإن مل وإن صدا

شربنا ماء بغداد ∴ فأنساناكم جدا

تبدلنا بها خورا ∴ لألحان الغنا إدا

وأبهى منكم شكلا ∴ وأحلى منكم قدا

فلا ترعوا لنا عهدا ∴ فما نرعى لكم عهدا

إن فن الهجاء العباسي أكثر فنون الشعر التقليدية تطورا في العصر العباسي، وإن كانت أغلب موضوعاته تقليدية خاض فيها السابقون، ولا شك في أن هذا التطور

يرجع إلى تطور الحياة بكل جوانبها، والى غلبة حياة اللهو والمجون والعبث على المجتمع العباسي"(١).

أرأيت إلى أي مدى يتغلغل الهجاء في صميم المجتمع بحثا عن العيوب والنقائص في محاولة لإصلاحها وتلافيها.

رثاء المدن:

"وفى العصر العباسي برز إطار جديد للرثاء، هو رثاء المدن وقد كان جديدا بكل معاني الكلمة، إذ إن علاقة الإنسان بالمدينة من قبل لم تتوطد بالشكل الذي توطدت به في العصر العباسي، هذا من جهة ومن جهة أخرى لم تشهد المدن الإسلامية قبل هذا العصر من الدمار والتخريب ما شهدته بعض مدن العراق في هذا العصر"(٢).

وهذا الموضوع الشعري جديد، ابتدعه الشعراء في العصر العباسي فهو أثر من آثار التقدم الحضاري والعمراني الذي شهده العصر، وارتباط الشعراء ببيئتهم الجديدة، بكل مظاهر التحضر فيها.

"وقد كانت بغداد أول مدينة عباسية أصابها الدمار والحريق والخراب أثناء الصراع الدائر بين الأمين والمأمون، فقد حاصرت جيوش المأمون بغداد، وهجمت الخراسانية بمجانيقها ورماحها وخيولها، ونزل بغداد من الظلم وهتك الأعراض ونهب الأموال والحريق والدمار ما لا يتصور أحد أن يحدث مثله في عهد بني

(١) في الأدب العباسي الرؤية والفن د/ عز الدين إسماعيل، طبعة دار النهضة العلمية، بيروت، ١٩٧٥م، ص ٣٦٣، ٣٦٤.

(٢) السابق ص ٣٦٤ .

العباس، فتأثر كثير من الشعراء بما حدث لبغداد، وهالهم أن تصبح بغداد العظيمة- التي كان يقصدها العلماء والأدباء من كل حدب وصوب، يلقى فيها كل منهم ببضاعته فيجد رواجا وربحا وفيرا- موطنا للخراب والدمار، ليلتهم الحريق خيراتها ومحاسنها وينهب اللصوص والرعاع الأموال، ويسلبون العفاف، فثارت ثائرتهم، وتحركت قرائحهم، فخرج شعرهم آية من آيات الإبداع الفني في مجال رثاء المدن، يزخر بالعاطفة الصادقة، والزفرات الحارة"(١).

ويبدو لي أن أشهر من صور هذه النكبة التي حلت ببغداد هو الشاعر أبو يعقوب إسحق الخريمي، فقد رثاها بقصيدة مؤثرة بكاءة، تحمل زفراته الحارة، وحسراته الملتاعة على ما حل ببغداد حاضرة الإسلام، ومنارة الفكر، حتى لتعد أروع قصيدة رثى بها شاعر عربي مدينة من المدن في القديم والحديث، فهو لا يشعرك أنه ناظم يتعمد الوصف ويحفل بالجزالة ويمهد لضروب الاستعارة والتشبيه، ولكنك تقف أمام نهر مطرد المسير دافق التيار، لينقل عن نفسه ما يجيش بها من هدير، وقد تعرض بدءا إلى عزها السالف ومجدها الغابر فرسمه في صورة سهلة لا تكلف بها، وإنما هي حديث شعري يحمل رصيده النفسي من الإيحاء والتلوين .

"ولم يخل العصر العباسي من قصائد أخرى كثيرة في رثاء المدن العباسية التي حل بها الخراب والدمار، من جراء الثورات المعادية لبني العباس، وفساد الأتراك وضعف الخلفاء والنزاع بينهم على الخلافة، حتى أصبح رثاء المدن في العصر العباسي - يمثل موقفا جديدا لشاعر العصر، فرضته عليه ظروف الحياة في المدينة وارتباطه الوجداني بها، إلى جانب الأحداث والظروف السياسية الداخلية التي عرفها ذلك العصر وإذ لم يكن في تراثه الشعري القديم تقاليد فنية راسخة لمثل هذا الرثاء، كان

(١) من فنون الشعر العباسي. د/ حبيب السيد أبو جمعة، ط٣- ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص١٩٣.

عليه أن يعول على نفسه في ابتكار الأطر المعنوية والفنية التي يصوغه فيها"(١).

وابتداع الشعراء العباسيين لهذا اللون الفني، جعل الشعراء من بعدهم ينهجون نهجهم فيه، ويسيرون على منوالهم، حيث أخذ الشعراء بعد ذلك يسجلون المآسي والنكبات التي تحل بالمدن، ويصورون ما ينزل بها من خراب ودمار حتى عصرنا الحديث، وإذن فلا صحة لما ذهب إليه الدكتور أحمد أمين حين قال: لقد سقطت بغداد في أيدي التتار وأزالوا كل ما فيها من مظاهر المدنية والحضارة وفعلوا بها ما لا يقل عما فعله الأسبانيون في الأندلس، وغزا هولاكو وتيمور لنك ونحوهما بلاد الشام، وأسقطوها بلداً بلداً فما رأينا رثاءً صارخا ولا أدبا راقيا.

لا صحة لهذا القول "إذ إن الواقع أن بغداد رثيت برثاء كثير في هذه المحنة، كما رثيت جميع المدن التي أسقطها هولاكو وتيمور لنك ولكن هذه المراثي لم تبلغ من الروعة مبلغ مراثي الخريمي وابن الرومي وأمثالها لانحدار الشعر العربي بعامة في عصور الغزو التتري، فلم يكن للعربية إذ ذاك من فحول الشعراء من يطيلون الملاحم في التفجع والحسرة، كما لم يكن لها إذ ذاك أيضا من يجيد الأغراض الأخرى من غزل ووصف ومدح، إنما كان لدينا شعراء فهموا مدلول الشعر على غير وجهه، وقد أفسدتهم سيطرة النقد القائم على تفضيل التلاعب اللفظي والمحسن البديعي، ومع هذا كله فقد قام من يقولون الشعر بواجبهم نحو هذه المدن الجريحة، فعبروا عن الشعور الإسلامي كما يستطيعون"(٢).

ثم إن مما يبطل دعوى الدكتور أحمد أمين خلو أدب المشارقة من رثاء المدن،

---

(١) في الأدب العباسي الرؤية والفن د/ عز الدين إسماعيل، ص ٣٧٨ .

(٢) الأدب الأندلسي- بين التأثر والتأثير- د/ محمد رجب البيومي، ط المجلس العلمي جامعة الملك محمد بن سعود- دار الثقافة والنشر- السعودية، ١٩٨٠م، ص٢١٩- ٢٢٠.

ذلك التناقض الذي بدا في كلامه، فعبارته التي سبق ذكرها- كما يقول الدكتور محمد رجب البيومي- (على شيء من التناقض أولا وأخيرا، إذ إن قوله، فإن قلنا: إن هذه الناحية في التاريخ الأندلسي أقوى وأشد لم نبعد عن الصواب قد يبدو متعارضا مع قوله: فما رأينا رثاء صارخا ولا أدبا رقيقا ولا تاريخا مسجلا، لأن القول الأخير يعترف بوجود هذا اللون على نحو أقل من لون الأندلس، والقول الأول يكاد يحكم بعدمه، مع أن المتصفح لكتب الأدب والتاريخ يرى رثاء المدن ذائعا في كل محنة تجد، ولم يتعرض أمثال الطبري وابن الأثير والمسعودي، لمحنة ما إلا رووا عنها في كتب التاريخ فضلا عن كتب الأدب الخالص، نماذج فيها الرثاء الصارخ والأدب الرقيق، والتاريخ المسجل، كما كان يريد أستاذنا الدكتور أحمد أمين)(١).

ومن هنا يمكننا القول- مطمئنين- إن رثاء المدن فن مشرقي المولد، ابتدعه شعراء العصر العباسي، استجابة لمتطلبات الحياة، وأحداث العصر، وأبدعوا فيه، وبرعوا في تصوير مآسي المدن ونكباتها أروع تصوير، يتم عن قيم حضارية إنسانية لدى شعراء العصر العباسي، تعكس لنا الارتباط الوجداني الوثيق بين الشعراء والمدن.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك جانبا آخر من جوانب الرثاء في ذلك العصر يمت بوثيق الصلة إلى رثاء المدن ، ويبدو أيضا جانبا جديدا ابتدعه شعراء العصر العباسي، هذا الجانب هو رثاء القصور والتفجع عليها.

فنحن نعرف أن العصر العباسي كان عصر القصور الفخمة المتناثرة في ثنايا المدن العباسية، اهتم بها العباسيون وشيدوها أحسن تشييد واهتموا أيضا بزخرفتها بشتى صور الفن العمراني الفارسي والإسلامي، لا فرق فى ذلك بين الخليفة والوزير

(١) السابق ص٢١١.

والأمير والقائد والوالي، بل وبعض أعيان العصر من التجار والأدباء وغيرهم.

وقد تأثر شعراء العصر بهذا الفن العمراني الذي استخدم في تشييد تلك القصور، وهالهم فخامتها وزخرفتها فتحدثوا عنها كثيرا في شعرهم، وصورهم أروع تصوير، كما كانوا في الوقت ذاته يرثون لقصر يهجر، أو يخرب، أو يدمر، فتأخذهم اللوعة والحسرة لما يحل ببعض القصور من نكبات وتدمير، ويصورون ذلك أبلغ تصوير في قصائد تعد من عيون رثاء القصور في الأدب العربي، ويرسمون المأساة رسما مؤثراً يأخذ بالألباب فتدمى له القلوب وتسيل الدموع.

وشعر النكبات نبت عباسي خالص، أفرزته ظروف البيئة نفسها التي أفرزت غيره من الشعر، وقد اقتسمت المقطوعة والقصيدة أشعار النكبات؛ بحيث استقلت المقطوعة بالشعر الذي قيل في حمى الاضطراب ، وفى وصف الأحداث اليومية البارزة بينما استقلت القصائد الطوال بالشعر الذي قيل مصورا النكبة كلها، وما كانت عليه المدينة، وما حل بها من صنوف الدمار والخراب والموت الذي حاق بسكانها.

لقد كانت الاضطرابات السياسية في العصر العباسي سببا في تعرض بعض المدن والقرى للدمار والنهب، من جراء الحروب الطاحنة التي رحاها تدور فتطحن الناس وتوزع الموت في كل مكان، وقد تأثر الشعراء بهذه الأحداث المؤلمة، فبكى بعضهم هذه المدن التي كانت عامرة بالحياة والجمال، ثم آلت إلى الدمار والخراب في قصائد ومقطعات تتسم بالروعة، وتجيش بالعواطف والمشاعر الصادقة، وتنطق ببكاء الشعراء الحار وتحسرهم الشديد على تلك المدن التى خربت.

والقصائد والمقطعات في ذلك كثيرة، تخيرت منها قصيدتين من أروع ما قيل في رثاء المدن، لأطبق عليهما ما هدف إليه البحث، والوقوف على تجليات وأسرار التكرار فيهما، وهما: قصيدة أبى يعقوب الخريمي في رثاء بغداد، وقصيدة ابن الرومي في رثاء البصرة.

المبحث الأول

نظرات تحليلية في القصيدتين

١ - قصيدة الخريمي في رثاء بغداد.

ولا غرابة أن ينشأ هذا الفن في هذا العصر الحضاري الذي تجذرت قيمه في نفوس الشعراء العباسيين، فكانوا في رثائهم للمدن، يدافعون عن الحضارة والرقى في وجه الهمجية، وعن السلام والدعة في وجه العنف والوحشية، وقد تجلى ذلك في رثاء الخريمي لبغداد، التي وقعت ضحية القتال الضاري الذي دار بين الأمين والمأمون،فكان رائد هذا الفن في قصيدته التي بلغت خمساً وثلاثين ومائة بيت.

يقول[١]: (المنسرح)

قالوا ولم يلعب الزمان ببغـ ∴ ـداد وتعثر بها عواثرها

إذ هي مثل العروس باطنها ∴ مشوق للفتى وظاهرها

جنة خلد ودار مغبطة ∴ قل من النائبات واترها

درت خلوف الدنيا لساكنها ∴ وقل معسورها وعاسرها

وانفرجت بالنعيم وانتجعت ∴ فيها بلذاتها حواضرها

---

(١) ديوان الخريمي جمعه وحققه/ على جواد الطاهر ومحمد جبار المعيبد ط دار الكتاب بيروت ط الأولى ١٩٧١م ص ٢٧- ٣٧ .

فـــالقوم منهـــا في روضـــة أنـــف .. أشرف غـــب القطـــار زاهرهـــا

مـــن غـــره العـــيش في بُلهنيـــة .. لـــو أن دنيـــا يـــدوم عامرهـــا

دار ملـــوك رســـت قواعـــدها .. فيهـــا وقـــرت بهـــا منابرهـــا

أهـــل العـــلا والنـــدى وأنديـــة الـــ .. ـــفخر إذا عـــددت مفاخرهـــا

أفـــراخ نعمـــى في إرث مملكـــة .. شـــد عراهـــا لهـــا أكابرهـــا

فلـــم يـــزل والزمـــان ذو غـــير .. يقـــدح في ملكهـــا أصـــاغرها

حتـــى تســـاقت كأســـا مثملـــة .. مـــن فتنـــة لا يقـــال عاثرهـــا

وافترقـــت بعـــد ألفـــة شـــيعا .. مقطوعـــة بينهـــا أواصرهـــا

يـا هـل رأيـت الأمـلاك مـا صـنعت .. إذ لم يرعهـــا بالنصـــح زاجرهـــا

أورد أملاكنـــــا نفوســـــهم .. هـــوة غيـــي أعيـــت مصـــادرها

مـــا ضرهـــا لـــو وفـــت بموثقهـــا ∴ واســـتحكمت في التقـــى بصـــائرها

ولم تســـــافك دمـــــاء شـــــيعتها ∴ وتبتعـــــث فتيـــــة تكابرهـــــا

وأقنعتهـــا الـــدنيا التـــي جمعـــت ∴ لهـــا ورعـــب النفـــوس ضـــائرها

مـــا زال حـــوض الأمـــلاك يحفـــره ∴ مســـجورها بـــالهوى وســـاجرها

تبغـــي فضـــول الـــدنيا مكـــاثرة ∴ حتـــى أبيحـــت كرهـــا ذخائرهـــا

تبيـــع مـــا جمـــع الأبـــوة للـــ ∴ أبنـــاء لا أربحـــت متاجرهـــا

يـــا هـــل رأيـــت الجنـــان زاهـــرة ∴ يـــروق عـــين البصـــير زاهرهـــا

وهـــل رأيـــت القصـــور شـــارعة ∴ تكـــن مثـــل الـــدمى مقاصرهـــا

وهل رأيـت القـرى التـي غـرس الـ ∴ أمـــــلاك مخضرـــــة دســـــاكرها

محفوفـــة بـــالكروم والنخـــل والـــر ∴ يحـــان مـــا يســـتغل طائرهـــا

فإنهـــا أصـــبحت خلايـــا مـــن الـــ ∴ إنســـان قـــد أدميـــت محاجرهـــا

قفـرا خـلاء تعـوي الكـلاب بهـا .. ينكـر منهـا الرسـوم زائرهـا

وأصـبح البـؤس مـا يفارقهـا .. إلفـا لهـا والسرور هاجرهـا

بزنـدورد والياسريـة والشـط .. ـين حيـث انتهـت معابرهـا

وبـالرحي والخيزرانيـة الـ .. ـعليا التـي أشرفـت قناطرهـا

وقصـر عبدُويـه عـبرة وهـدى .. لكـل نفـس زكـت سرائرهـا

فـأين حراسـها وحارسـها .. وأيـن مجبورهـا وجابرهـا

وأيـن خصـيانها وحشـوتها .. وأيـن سـكانها وعامرهـا

أيـن الجراديـة الصـقالب والـ .. أحـبش تعـدو هـدلا مشـافرها

ينصـدع الجنـد عـن مواكبهـا .. تعـدو بهـا سربـا ضـوامرها

بالسـند والهنـد والصـقالب والـ .. ـنوبة شـيبت بهـا برابرهـا

طـــيرا أبابيـــل أرســـلت عبثـــا ∴ يقـــدم ســـودانها أحامرهـــا

أيـن الظبـاء الأبكـار في روضـة الـــ ∴ ـــملك تهـــادى بهـــا غرائرهـــا

أيـــن غضـــاراتها ولـــذتها ∴ وأيـــن محبورهـــا وحابرهـــا

بالمســـك والعنـــبر الـــيمان والـــ ∴ ـــيلنجوج مشـــبوبة مجامرهـــا

يـــرفلن في الخـــز والمجاســـد والـــ ∴ ـــموشي محطومـــة مزامرهـــا

فـــأين رقاصـــها وزامرهـــا ∴ يجـــبن حيـــث انتهـــت حناجرهـــا

تكـــاد أســـماعهم تســـك إذا ∴ عـــارض عيـــدانها مزاهرهـــا

أمســـت كجـــوف الجـــار خاليـــة ∴ يســـعرها بـــالجحيم ســـاعرها

كـــأنما أصـــبحت بســـاحتهم ∴ عـــاد ومســـتهم صراصرهـــا

لا تعلـــم الـــنفس مـــا يبايتهـــا ∴ مـــن حـــادث الـــدهر أو يباكرهـــا

تضـــحي وتمسيـــ دريـــة غرضـــا ∴ حيـــث اســـتقرت بهـــا شراشرهـــا

لأســـهم الـــدهر وهـــو يرشـــقها .·. محنطهـــــا مـــــرة وباقرهـــــا

يـــا بـــؤس بغـــداد دار مملكـــة .·. دارت عـــلى أهلهـــا دوائرهـــا

أمهلهـــــا الله ثـــــم عاقبهـــــا .·. لمـــا أحاطـــت بهـــا كبائرهـــا

بالخسـف والقـذف والحريـق وبالـــ .·. ـــحرب التـي أصـبحت تسـاورها

كـم قـد رأينـا مـن المعـاصي ببغـدا .·. د فهـــل ذو الجـــلال غافرهـــا

حلـــت ببغـــداد وهـــي آمنـــة .·. داهيـــة لم تكـــن تحاذرهـــا

طالعهـــا الســـوء مـــن مطالعـــه .·. وأدركـــت أهلهـــا جرائرهـــا

رق بهـا الـدين واسـتخف بـذي الـــ .·. ـــفضل وعـــز النســـاك فاجرهـــا

وخطـــم العبـــد أنـــف ســـيده .·. بـــالرغم واســـتعبدت حرائرهـــا

وصـــار رب الجـــيران فاســـقهم .·. وابتـــز أمـــر الـــدروب ذاعرهـــا

مـــن يـــر بغـــداد والجنـــود بهـــا ∴ قـــد ربقـــت حولهـــا عســـاكرها

كـــل طحـــون شـــهباء باســـلة ∴ تســـــقط أحبالهـــــا زماجرهـــــا

تلقـــي بغـــي الـــردى أوانســـها ∴ يرهقهـــــا للقـــــاء طاهرهـــــا

والشـــيخ يعـــدو حزمـــا كتائبـــه ∴ يقـــــدم أعجازهـــــا يعاورهـــــا

ولـــــزهير بـــــالفرك مأســـــدة ∴ مرقومـــــة صـــــلبة مكاسرهـــــا

كتائـــب المـــوت تحـــت ألويـــة ∴ أبـــــرح منصـــــورها وناصرهـــــا

يعلـــــم أن الأقـــــدار واقعـــــة ∴ وقعـــا عـــلى مـــا أحـــب قادرهـــا

فتلـك بغـداد مـا يبنـي مـن الـذ ∴ لـــــة في دورهـــــا عصـــــافرها

محفوفـــــة بـــــالردى منطقـــــة ∴ بالصـــــغر محصـــــورة جبابرهـــــا

مـــا بـــين شـــط الفـــرات منـــه إلى ∴ دجلـــة حيـــث انتهـــت معابرهـــا

نـــار كهـــادي الشـــقراء نـــافرة ∴ تـــركض مـــن حولهـــا أشـــاقرها

يحرقهـــــا ذا وذاك يهـــــدمها ∴ ويشـــتفي بالنهـــاب شـــاطرها

والكـــوخ أســـواقها معطلـــة ∴ يســـتن عيارهـــا وعائرهـــا

أخرجـت الحـرب مـن سـواقطها ∴ آســاد غيـل غلبـا تسـاورها

مـن البـواري تراسـها ومـن الـ ∴ ـخوص إذا اسـتلأمت مغافرهـا

تغـدو إلى الحـرب في جواشـنها الـ ∴ ـصوف إذا مـا عـدت أسـاورها

كتائـب الهـرش تحـت رايتـه ∴ سـاعد طرارهـا مقامرهـا

لا الـرزق تبغـي ولا العطـاء ولا ∴ يحشرـها للقـاء حاشرهـا

في كـل درب وكـل ناحيـة ∴ خطـارة يسـتهل خاطرهـا

بمثـل هـام الرجـال مـن فلـق الصـ ∴ ـخر يـزود المقـلاع بائرهـا

كـأنما فـوق هامهـا فـرق ∴ مـن القطـا الكـدر هـاج نافرهـا

والقـــوم مـــن تحتهـــا لهـــم زجـــل ∴ وهـــي ترامـــي بهـــا خواطرهـــا

بـــل هـــل رأيـــت الســـيوف مصـــلتة ∴ أشـــهرها في الأســـواق شـــاهرها

والخيـــــل تســـــتن في أزقتهـــــا ∴ بـــــالترك مســـــنونة خناجرهـــــا

والـــــنفط والنـــــار في طرائقهـــــا ∴ وهابيـــــا للـــــدخان عامرهـــــا

والنهـــب تعـــدو بـــه الرجـــال وقـــد ∴ أبـــــدت خلاخيلهـــــا حرائرهـــــا

معصوصـــبات وســـط الأزقـــة قـــد ∴ أبرزهـــــا للعيـــــون ســـــاترها

كـــــل رقـــــود الضـــــحى مخبـــــأة ∴ لم تبـــــد في أهلهـــــا محاجرهـــــا

بيضـــــة خـــــدر مكنونـــــة بـــــرزت ∴ للنـــــاس منشـــــورة غـــــدائرها

تعثـــــر في ثوبهـــــا وتعجلهـــــا ∴ كبـــــة خيـــــل ريعـــــت حوافرهـــــا

تســـــأل أيـــــن الطريـــــق والهـــــة ∴ والنـــــار مـــــن خلفهـــــا تبادرهـــــا

لم تجتـــل الشـــمس حســـن بهجتهـــا ∴ حتـــى اجتلهـــا حـــرب تباشرهـــا

يـــا هـــل رأيـــت الـــثكلى مولولـــة ∴ في الطـرق تسـعى والجهـد باهرهـا

في إثـــر نعـــش عليـــه واحـــدها ∴ في صـــــدره طعنـــــة يســـــاورها

فرغـــاء ينقـــى الشـــنار مربـــدها ∴ يهزهـــــا بالســـــنان شـــــاجرها

تنظـــر في وجهـــه وتهتـــف بالثـــ ∴ ـــكل وجـــاري الـــدموع حادرهـــا

غرغـــر بـــالنفس ثـــم أســـلمها ∴ مطلولـــــة لا يخـــــاف ثائرهـــــا

وقـد رأيـت الفتيـان في عرصـة الـ ∴ ـــــمعرك معفـــورة مناخرهـــــا

كـــل فتـــى مـــانع حقيقتـــه ∴ تشـــفى بـــه في الـــوغى مســـاعرها

باتـــت عليـــه الكـــلاب تنهشـــه ∴ مخضـــــوبة مـــــن دم أظافرهـــــا

أمـــا رأيـــت الخيـــول جائلـــة ∴ بـــــالقوم منكوبـــــة دوائرهـــــا

تعثـــر بالأوجـــه الحســـان مـــن الـــ ∴ ـــقتلى وغلـــت دمـــا أشـــاعرها

١

يطـــأن أكبـــاد فتيـــة نجـــد ∴ يفلـــق هامـــاتهم حوافرهـــا

أمـــا رأيـــت النســـاء تحـــت المجـــا ∴ نيـــق تعـــادى شـــعثا ضـــفائرها

عقائـــل القـــوم والعجـــائز والـــ ∴ ـــعنس لم تحتـــبر معاصرهـــا

يحملـن قوتـا مـن الطحـين عـلى الـ ∴ أكتـــاف معصـــوبة مهاجرهـــا

وذات عـــيش ضـــنك ومقعســـة ∴ تشـــدخها صـــخرة تعاورهـــا

تســأل عـــن أهلهـــا وقـــد ســـلبت ∴ وابتـــز عـــن رأســـها غفائرهـــا

يـــا ليـــت شـــعري والـــدهر ذو دول ∴ يرجـــى وأخـــرى تخشـــى بوادرهـــا

هـــل تـــرجعن أرضـــنا كـــما غنيـــت ∴ وقـــد تناهـــت بنـــا مصـــايرها

مـــن مبلـــغ ذا الرياســـتين رســـا ∴ لات تـــأتي للنصـــح شـــاعرها

بـــأن خـــير الـــولاة قـــد علـــم النـــ ∴ ـــاس إذا عـــددت مآثرهـــا

خليفـــة الله في بريتـــه الـــ ∴ ـــمأمون منتاشـــها وجابرهـــا

سـمت إليـه آمـال أمتـه .. منقـادة برهـا وفاجرهـا

شـاموا حيـا العـدل مـن مخايلـه .. وأصـحرت بـالتقى بصـائرها

وأحمـدوا منـك سـيرة جلـت ال .. شـك وأخـرى صـحت معاذرهـا

واسـتجمعت طاعـة برفقـك للمـأ .. مـون نجـديها وغائرهـا

وأنـت سـمع في العـالمين لـه .. ومقلـة مـا يكـل ناظرهـا

فاشـكر لـذي العـرش فضـل نعمتـه .. أوجـب فضـل المزيـد شـاكرها

واحـذر فـداء لـك الرعيـة والـ .. أجنـاد مأمورهـا وآمرهـا

لا تـردن غمـرة بنفسـك لا .. يصـدر عنهـا بـالرأي صـادرها

عليـك ضحضـاها فـلا تلـج الغمـ .. ـرة ملتجـة زواخرهـا

والقصـد إن الطريـق ذو شـعب .. أشـأمها وعثهـا وجائرهـا

أصـــــبحت في أمـــــة أوائلهـــــا ∴ قـــد فارقـــت هـــديها أواخرهـــا

وأنـــــت سرســـــورها وسائســـــها ∴ فهـــل عـــلى الحـــق أنـــت قاسرهـــا

أدب رجـــــالا رأيـــــت ســـــيرتهم ∴ خـــالف حكـــم الكتـــاب ســـائرها

وامـــدد إلى النـــاس كـــف مرحمـــة ∴ تســـــد مـــــنهم بهـــــا مفاقرهـــــا

أمكنـــك العـــدل إذ هممـــت بـــه ∴ ووافقـــــت مـــــدة مقادرهـــــا

وأبصرـــ النـــاس قصـــد وجههـــم ∴ وملكـــــــت أمـــــــة أخايرهـــــــا

١

تشرـــع أعناقهـــا إليـــك إذ الســـــ ∴ ـــادات يومـــا جمـــت عشـــائرها

كـم عنـدنا مـن نصـيحة لـك في اللـــ ∴ ـــه وقربـــى عـــزت زوافرهـــا

وحرمـــــة قربـــــت أواصرهـــــا ∴ منـك وأخـرى هـل أنـت ذاكرهـا

ســـعي رجـــال في العلـــم مطلـــبهم ∴ رائحهـــــا بـــــاكر وباكرهـــــا

دونـــــك غـــــراء كالوذيلـــــة لا ∴ تفقـــــد في بلـــــدة ســـــوائرها

لا طعـــما قلتهـــا ولا بطـــرا .. لكـــل نفـــس هـــوى يؤامرهـــا

ســـيرها الله بالنصـــيحة والـــ .. ـــخشية فاســـتدمجت مرائرهـــا

جاءتـك تحكـي لـك الأمـور كـما .. ينشرـــ بـــز التجـــار ناشرهـــا

حملتهـــا صـــاحبا أخـــا ثقـــة .. يظـــل عجبـــا بهـــا يحاضرهـــا

وإذا نظرنـا في قصـيدة الخريمـي، ورأينـا المعـاني التـي تـدور حولهـا، نجـد أنهـا تتعاضد على رسم صورة كلية لنكبة بغداد وما حل بها.

"والشـعر شـكل مـن أشـكال فـن المقاومـة، أي أنـه أكثـر الأنـواع الأدبيـة قـدرة عـلى امتصـاص رحيـق الكارثـة ومقاومتهـا في حينهـا، ولا يتحـدد هـذا المعنـى في سرعـة الاسـتجابة الفوريـة مـن جانـب الشـاعر فحسـب، وإنـما يتحـدد في قـدرة البنـاء الشـعري على تمثـل الحـدث، واسـتيعابه في صـورة مركـزة قـادرة عـلى الوفـاء بتجسـيد مشـاعر الفنـان وأفكاره"(١).

إن المبـدع في أثنـاء إبداعـه ونـزول الإلهـام الشـعري، تأتيـه المعـاني أرسـالاً، وتنثـال عليـه الألفـاظ انثيـالاً، وقـد يلقـى الأمـر عـلى عواهنـه، فهنـا تـأتى مهمـة الناقـد في إعـادة تشـكيل رؤى ربـما عـبر عنهـا المبـدع، وتـرك للحـس النقـدي إعـادة ترتيبهـا، بحيـث تظهـر براعته، وتدل على قدرته.

(١) أدب المقاومة . د/ غالى شكري- الطبعة الثانية ، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٧.

انظر إلى جدلية الغياب والحضور في قوله[1]:

قـــالوا ولم يلعـــب الزمـــان ببغـــ ∴ ـــــداد وتعثـــر بهـــا عواثرهـــا

إذ هـــي مثـــل العـــروس باطنهـــا ∴ مشـــــوق للفتـــــى وظاهرهـــــا

جنـــــة خلـــــد ودار مغبطـــــة ∴ قـــل مـــن النائبـــات واترهـــا

درت خلـــوف الـــدنيا لســـاكنها ∴ وقـــل معســـورها وعاسرهـــا

وانفرجـــت بـــالنعيم وانتجعـــت ∴ فيهـــا بلـــذاتها حواضرهـــا

فـــالقوم منهـــا في روضـــة أنـــف ∴ أشرف غـــب القطـــار زاهرهـــا

تجـد أن الغائـب هـو الشـاعر، والحضـور هـم قومـه مـن أهـل بغـداد، الـذين مـن خلالهـم يسـتطيع أن يصـف الأحـداث، ويقـص علينـا مـن خـلال رؤيـتهم مظـاهر الحيـاة الحضـارية للنـاس والعصـر، وتتعمـق هـذه الجدليـة حـين يتحـدث عـلى لسـانهم بأسـلوب المفارقة بين ما كان وما هـو كـائن، حـين يعتمـد القاصـون الـزمن المـاضي في مقابـل الحـاضر المأسـاوي الغـابر، فكانـت بغـداد جنـة بكـل مـا تحتويـه مـن نعـيم، يتلـذذ بـه أهلهـا عـلى اختلاف أجناسهم ودياناتهم.

---

(١) ديوان الخريمي ص ٢٧ .

ومن مظاهر اعتماد الماضي السعيد المجيد لبغداد، لا الحاضر الذليل، استخدام الأفعال الماضية" قالوا، درت خلوف الدنيا لساكنها، انفرجت بالنعيم، انتجعت فيها، قل معسورها وعاسرها" فهي تريد انعكاسا للزمن المشرق لبغداد، وأما صور هذه اللوحة فتارة تقوم على التجسيد"لم يلعب الزمان ببغداد" فجعل الزمان المجرد كائنا حيا، وأضفى عليه سمات البشر- وهى اللعب، وتارة تقوم على التشخيص"اذ هي مثل العروس" ليضفى الحياة والبهجة على المدينة.

وأما عن الإيقاع الموسيقى فهو متنوع، فالداخلي يتمثل في الجناس" تعثر عواثرها" و"عاسرها ومعسرها"، والترادف "جنة الخلد،دار مغبطة"، والتضاد "باطنها وظاهرها" وأما الخارجي، فاعتمد على بحر المنسرح، وقافية موحدة بعثت الموسيقية في القصيدة، وأما الألفاظ، فلأن العصر- حضارة وازدهار وتمتع باللذات والخيرات، فجاءت متفائلة"عروس، جنة خلد، دار مغبطة، نعيم، لذات، روض لذات"، فهذه اللوحة قامت على الوصف والسرد القصصي- الذي جاء على لسان هذه المجموعة التي شهدت هذا الماضي الزاهي لبغداد.

كما يعتمد على أسلوب المفارقة، أو التضاد، بين ما كانت عليه الخلافة من قوة قبل فتنة الأمين والمأمون، وضعفها الذي أدى إلى تخريبها الخراب العظيم بعد أن وقعت هذه الفتنة.

وما دام الشاعر يتحدث عن مظاهر قوة وعز وغلبة، فهي قرين لمظاهر الحياة الرغدة والعيش الهانئ السعيد، ومن ثم تكون على شاكلتها، فيستخدم الزمن الماضي في السرد، لأن هذا ما كان، فكانت بغداد"رست قواعدها، قّر بها منابرها، شد عراها لها أكابرها" ويصف خلفاء بغداد بأنهم"أهل العلا" كناية عن الرفعة والسمو،"وأهل الندى" كناية عن الكرم والجود،"وأندية فخر" كناية عن عزتهم وقوتهم.

وأما النقيض، وهى مظاهر الضعف والتدهور، فقد تحدث عنها من خلال زمنين هما:

الحاضر والماضي، فالحاضر "يقدح في ملكها أصاغرها" بالمضارع لاستمرار الفتنة واشتغالها بين الأمين والمأمون،"وحتى تساقت كأساً مثملة" فجاء بالفعل المضارع تساقت ليظهر الرفض لهذا الواقع ولكنها أجبرت عليه، ويقرن بهذا الوصف لبغداد، وصف الخلفاء "تبغي فضول الدنيا مكاثره، تبيع ما جمع الأبوة".

وأما اختياره للزمن الماضي للحديث عن بغداد، فهو يشير إلى حنينه لهذا الزمن المشرق، وتأسفه وتحسره على ما حل ببغداد.

وأما الألفاظ والتراكيب المستخدمة، فهي تدل على الجرأة، فأن يقول شاعر عن بعض الخلفاء "الأصاغر، فتية، أفراخ نعمى، تبغي فضول الدنيا" فهو تمرد على الواقع السياسي.

ويعود الشاعر للحديث عن بغداد قبل الفتنة، ليدلل على عظمتها في ماضيها، وعلو شأنها عند أهلها، ويتحدث عن حالها بعد الفتنة مرة ثانية، مما يوحى هذا بنوع من الاضطراب النفسي عند الخريمي، بما يضفى اضطرابها تجاه موقفه من الأزمة.

ثم يقف الشاعر على أطلال بغداد بعد خرابها متسائلا كما تساءل من قبله الشاعر الجاهلي حينما وقف على الأطلال بعد وحشة المكان ومغادرة أهله، فيتساءل مراراً وتكراراً دون مجيب، أين "حراسها وحارسها، ومجبورها وجابرها، وسكانها والنساء، وراقصها وزامرها".

ويستحضر الخريمي في هذه اللوحة جميع فئات المجتمع البغدادي من "ملوك وخدم وجنود ونساء وفتية ورجال" وهو بهذا الاستدعاء يحاول استنهاض همم أفراد المجتمع على اختلاف جنسهم وعملهم ومراحل عمرهم.

وتـراه يظهـر متجـردا مـن المسـئولية والشـعور تجـاه مـا حـلّ ببغـداد، ويقتصر دوره على مجرد الوصف لها وأهلها، ويظـن مـن يقـرأ هـذا الوصـف للوهلـة الأولى، أنـه جـاء عـلي لسان عدو، لما يظهر فيـه مـن التشـفي في العـرب والمسـلمين، فهـو يـرى أن الله أمهـل بغـداد ثم عاقبها ، لما أحاطت بها كبائرها.

فالشـاعر يرسـم لوحـة تبـدو عليهـا مظـاهر الألم والحـزن، إذ اسـتطاع الشـاعر أن ينفـذ بريشـته إلى مـواطن الألم والحـزن، وهـو يجسـد مشـاهد المـوت والخـراب وتأثيرهـا في النفـوس والمكـان وقـد أبـان الوصـف قسـوة الحـرب عـلى بغـداد ونواحيهـا، فـانظر إلى خيرات بغداد من الـنفط كيـف اسـتخدم في حـرق وتـدمير المدينـة، كـما قـد تعطلـت مظـاهر الحيـاة في مدينـة الكـرخ "أسـواقها معطلـة" وأبـرز مـا في هـذه اللوحـة، الدقـة في وصـف أدوات الحرب التي دمرت بغداد كالمنجنيق والمقلاع والسيوف والخناجر .

ثم يصف أثر الحرب في النفـوس بشـيء مـن التفصـيل، حيـث أبـان أثـر الحـرب عـلى النسـاء الحرائـر، فمـن نسـاء أبـدت خلاخيلهـا دلالـة عـلى الفـزع وخـروج الحرائـر مـن بيوتهـا، إلى تصـويرهن وقـد كشـفن النقـاب عـن وجـوههن، وتصـويره بيضـة الخـدر المكنونـة وقـد بـرزت للنـاس وهـى نـاشرة لغـدائرها، دلالـة عـلى الرعـب والفـزع، إلى تصـوير الحرائـر وهـى تتعثـر بأنوثتهـا دلالـة عـلى سرعـتهن وتخـبطهن بالمشي مـن شـدة الهول.

ثـم انتقـل إلى تصـوير أثـر الحـرب عـلى الـثكلى، وأبـرز مـا في تلـك اللوحـة ارتفـاع صـوتها حزنـا عـلى ابنهـا الوحيـد، محاولـة الاسـتنجاد بأحـد السـامعين، لعلـه يأخـذ بثـأر وليـدها، ولكـن يختـم اللوحـة بالسـكون والمـوت، فوليـدها فـارق الحيـاة، وقاتلـه لا يخـاف الثأر، فلا سامع لصرخة هذه المرأة المستنجدة فيغيثها.

ويأتي بعدها لتصوير أثر الحرب على الفتيات، ويصور الخريمي الفتيات وقد تعفرت وجوههن بالتراب، ونهشت الكلاب لحومهن، وامتلأت أظافرها بدمائهن، ويصفهن وقد داست الخيول على وجوههن وأكبادهن، دلالة على الإهانة والمذلة التي لحقت بهم.

ثم يعود إلى تصوير أثر الحرب على النساء؛ ليوسع الدائرة فيضم إليهن عقائل القوم، والعجائز، والعنس، ونساء الأغنياء والفقراء وقد صورهن تحت المنجنيق،دلالة على الخطر المحدق بهن،وصورهن شعث الضفائر دلالة على الرعب المفزع.

أما مدحه للخليفة المأمون وذكر وزيره الفضل، فلا ينسجم مع موضوع النص، فقد أقحمه الشاعر في جسد القصيدة، لأمر ما في نفسه، لم يظهره، وادعى أنه أراد النصح، فكأن ما حل ببغداد من مصائب وأوجاع لا يستثير عاطفته الداخلية، من هنا يستتر برداء الوعظ والنصح، ليحقق مأربه في الإسراف في مدح الخليفة.

٢ – قصيدة ابن الرومي في رثاء البصرة.

" وفى عام ٢٥٥ هـ تعرضت البصرة لهجوم الزنج، وقد أدى ذلك إلى كارثة عظيمة اهتزت لها النفوس، إذ دمر المهاجمون المدينة، وفتكوا بأهلها بكل قسوة وشدة، انتقامًا للظلم الذي عانوه عبر عذاب طويل، فكان ردهم على هذا الظلم عنيفا وغوغائيا،جعل الناس يستنكرون هذا الفعل وينفرون منه"(١).

وقد رثى ابن الرومي البصرة بقصيدة مشهورة، سار فيها على درب الخريمي، يقول:(٢) [الخفيف]

ذادَ عن مُقْلِتي لذيذَ المنامِ .. شُغلها عنهُ بالدموعِ السجامِ

أيُّ نومٍ من بعد ما حل بالبصْـ .. ـرَة من تلكمُ الهناتِ العظام؟

أيُّ نومٍ من بعد ما انتهك الزَّنْـ .. ـجُ جهارا محارم الإسلام؟

إنَّ هذا من الأمورِ لأمْرٌ كاد .. أن لا يقومَ في الأوهام

لرأينا مُسْتَيْقظين أموراً .. حسبُنا أن تكونَ رُؤيا منام

(١) ابن الرومي الشاعر المتجدد د/ ركان الصفدي ط الهيئة العامة السورية لكتاب ٢٠١٢م ص١٤٢.

(٢) ديوان ابن الرومي شرح أحمد حسن بسج، الجزء الثالث ، ط دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- الطبعة الثالثة- ٢٠٠٢م ، ص٣٣٨ : ٣٤٢ .

أقـــــدم الخـــــائنُ اللعـــــينُ ∴ عليها وعـــلى الله أيَّـــما إقـــدام

وتســـــمى بغـــير حـــقٍّ إمامـــاً ∴ لا هـــدى اللهُ ســـعيه مـــن إمـــام

لهـفَ نفسـي عليـكِ أيَّتُهـا البصـــ ∴ ـــرة لهفـاً كمثـل لهْـبِ الضِّرام

لهـف نفسي ـ عليـك يـا معـدن الخيـــ ∴ ـــرات لهْفـاً يُعضُّـــني إبهـامي

لهـــف نفسيـــ يـــا قُبَّـــةَ الإســـــ ∴ ـــلام لهفـاً يطـولُ منـه غرامـي

لهـــف نفســـي لجمعـــكِ المتفـــاني ∴ لهـــف نفســـي لِعِـــزكِ المُستضـــام

بينمـــا أهلُهـــا بأحســـنِ حـــالٍ إذ ∴ رمـــاهمْ عبيـــدُهمْ باصـــطلامِ

دخلوهـــا كـــأنهم قِطـــع اللّيـــــ ∴ ـــلِ إذا راحَ مُـــدْلَهِمَّ الظـــلام

طلعُـوا بالمُهَنَّـداتِ جِهْـراً فألقـتْ ∴ حملهـــا الحـــاملات قبـــل الـــتَّمام

وحقيـــقٌ بـــأن يُـــراع أنـــاسٌ ∴ غومضـــوا مـــن عـــدوهم باقتحـــام

أيَّ هَـــوْل رأوا بهـــمْ أيّ هَـــوْلٍ ∴ حُـــقَّ منـــه تشـــيبُ رأسُ الغـــلام

إذ رمـــوْهُمْ بنـــارهم مـــن يمـــينٍ ∴ وشِـــــمال وخلفِهـــــمْ وأمـــــام

كـــم أغصـــوا مـــن شـــارب شراب ∴ كـــم أغصـــوا مـــن طـــاعم بطعـــام؟

كـــم ضـــنين بنفســـه رام منجـــى ∴ فتلقـــــوا جبينـــــه بالحســـــام؟

كـــم أخ قـــد رأى أخـــاه صريعـــا ∴ تـــرب الخـــد بـــين صرعـــى كـــرام؟

كـــم أب قـــد رأى عزيـــز بنيـــه ∴ وهـــو يعـــلى بصـــارم صمصـــام؟

كـــم مفـــدى فى أهلـــه أســـلموه ∴ حـــين لم يحمـــه هنالـــك حـــامى؟

كـــم رضـــيع هنـــاك قـــد فطمـــوه ∴ بشـــبا السـيف قبـــل حـــين الفطـــام؟

كـــــم فتـــــاة بخـــــاتم الله بكـــــر ∴ فضـــحوها جهـــرًا بغـــير اكتتـــام؟

كـــم فتـــاة مصـــونة قـــد ســـبوها ∴ بـــــارزا وجههـــــا بغـــــير لثـــــام؟

صـــبحوهُمْ فكابـــدَ القـــومُ مـــنهم ∴ طـــولَ يـــومٍ كأنـــه ألـــفُ عـــامِ

ألــفُ ألــفٍ في ســاعةٍ قتلُــوْهم ∴ ثــم ســاقوا السِّــباءَ كالأغنــام

مــن رآهُــنَّ في المســاقِ ســبايا ∴ داميــاتِ الوجــوهِ للأقــدام

مــن رآهــنَّ في المقاســم وسْــطَ الــزْ ∴ نــج يُقَسَّــمْنَ بيــنهمُ بالسِّــهام

مــن رآهُــنَّ يتَخــذن إمــاءً ∴ بعــد ملْــكِ الإمــاء والخُــدَّام

مــا تــذكرتُ مــا أتــى الــزنج إلاَّ ∴ أُضرم القلــب أيّــما إضرام

مــا تــذكرتُ مــا أتــى الــزنج إلاَّ ∴ أو جعْتَنــي مــرارةُ الإرغــام

رُبَّ بيــعٍ هنــاك قــد أرخصُــوهُ ∴ طــال مــا قــدْ غــلا عــلى السُّــوَّام

رُبَّ بيــتٍ هنــاك قــد أخرجُــوهُ ∴ كــان مــأوى الضِّــعافِ والأيتــام

رُبَّ قصْرٍــ هنــاك قــدْ دخلــوه ∴ كــان مــن قبــلِ ذاك صَــعْبَ المــرام

رُبَّ ذي نعمــةٍ هنــاك ومــالٍ ∴ تركــوهُ مُحــالفَ الإعــدام

رب قــوم بــاتوا بــأجمعِ شَــمْلٍ ∴ تركــوا شــملَهُمْ بغــير نظــام

عرِّجا صاحبيَّ بالبصرةِ الزَّهْـ .. ـراء تعريج مُدنف ذي سقام

فاسْألاها ولا جوابَ لديها .. لسؤال ومن لها بالكلام

أين ضوضاءُ ذلك الخلقِ في .. أين أسواقُها ذواتُ الرِّخام

أين فُلْكٌ فيها وفُلْكٌ إليها .. مُنشآتٌ في البحر كالأعلام

أين تلك القصورُ والدورُ فيها .. أين ذاكَ البنيانُ ذو الإحكام

بدِّلتْ تِلكُمُ القصورِ تِلالا .. رمادٍ ومن تُراب رُكامِ
من

سُلِّطَ البَثْقُ والحريقُ عليهم .. فتداعت أركانُها بانهدامِ

وخلتْ من حُلولها فهْي قَفْ .. لاترى العين بين تلك الأكام

غيرَ أيْدٍ وأرْجُلٍ بائناتٍ .. نُبذَتْ بينهنَّ أفلاقُ هام

ووجوهٍ قد رمَّلْتها دماءٌ .. بأبي تلكمُ الوجوه الدوامي

وَطِئَــتْ بــالهوانِ والــذُّلِّ قسرًــا ∴ بعــد طــولِ التبجيــلِ والإعظــام

فتراهــا تَسْــفي الريــاحُ عليهــا ∴ جاريــــاتٍ بهبــــوة وقتــــام

خاشــــعاتٍ كأنهــــا باكيــــات ∴ باديــــات الثغــــور لا لابتســــام

بــل ألَمَّــا بســاحةِ المســجدِ الجــا ∴ مــــع إنْ كُنْــــتُما ذَوِي إلمــــام

فاســــألاهُ ولا جــــوابَ لدْيــــهِ ∴ أيــــن عُبَّــادهُ الطــوالُ القيــام

أيــــنَ عُــــمَّاره الأُلى عمَّــــروهُ ∴ دَهْــــرهُمْ في تــــلاوة وصــــيام

أيــــن فِتيانــــه الحِســــانُ وجُوهــــاً ∴ أيــــن أشــــياخُهُ أولــــو الأحــــلام

أيُّ خَطْــــبٍّ وأيُّ رُزْء جليــــلٍ ∴ نالنــــا في أولئــــكَ الأعــــمام

كــم خــذلنا مــن ناسكٍ ذي اجتهــادٍ ∴ وفقيــــهٍ في دينــــهِ عــــلاَّم

وانــدامي عــلى التَّخلُّــفِ عــنهمْ ∴ وقليــل عــنهُم غنــاء نِــدامي

واحيـــائي مـــنهُمْ إذا مـــا التقينـــا ∴ وهُـــمُ عنـــد حـــاكم الحُكّـــام

أيُّ عُذْرٍ لنا وأيُّ جوابٍ حـــــين ∴ نُـــدْعَى عـــلى رؤوسِ الأنـــامِ

يـــا عبـــادي أمـــا غَضِـــبْتُم لـــوجهي ∴ ذي الجـــلال العظـــيم والإكـــرام

أخـــذلتُمْ إخـــوانكَمُ وقعـــدْتُمْ ∴ عـــنهُمُ ويحْكـــم قُعـــودَ اللئـــام

كيـــف لم تعطفـــوا عـــلى أخـــواتٍ ∴ في حِبـــال العبيـــدِ مـــن آل حـــام

لم تغـــاروا لغـــيرتي فتركـــتُم ∴ حرمـــاني لمـــن أحـــلَّ حرامـــي

إنَّ مـــن لم يَغَـــرْ عـــلى حُرُمـــاتي ∴ غـــيرُ كُـــفْءٍ لقـــاصراتِ الخيـــام

كيـــف تـــرضى الحَـــوراء بـــالمرءِ بَعْـــلاً ∴ وهـــو مـــن دونِ حُرمـــة لا يُحَـــامي

واحيـــائي مـــن النَّبـــيِّ إذا مـــا ∴ لامنـــي فـــيهم أشـــدَّ المـــلام

وانقطـــاعي إذا هُـــمُ خاصـــموني ∴ وتـــولَّى النبـــيُّ عـــنهُمْ خصـــامي

مثِّلُــوا قولــهُ لكُــمْ أيُّهــا النَّــا .. سُ إذا لامكُـــمْ مـــع اللُّـــوام

أُمَّتي أينَ كُنْتُمُ إذْ دَعتْني حُـــــرَّة .. مـــــن كـــــرائمِ الأقـــــوام

صرخـــتْ يـــا مُحمّـــدا هُفهـــلاً .. قـــام فيهـــا رعـــاةُ حقـــي مقـــامي

لم أجبْهـــا إذ كنـــتُ مَيْتـــاً فلـــولا .. كـــان حـــيٌّ أجابهـــا عـــن عِظـــامي

بـــأبي تلكُـــمُ العِظـــامُ عظامـــا .. وســـقَتْها الســـماءُ صـــوْبَ الغـــمام

وعليهـــا مـــن المليـــك صـــلاة .. وســـــلامٌ مؤكَّـــــدٌ بســـــلام

انفـــروا أيهـــا الكـــرام خفـــا فـــاً .. وثقـــــالاً إلى العبيـــــد الطغـــــام

أبْرمَـــوُا أمـــرهُمْ وأنـــتُمْ نِيـــامٌ .. ســـوءةً ســـوءةً لنـــوْمِ النيـــام

صـــدِّقوا ظـــنَّ إخـــوة أمَّلـــوكم .. ورجـــــوْكُمْ لنبـــــوةِ الأيـــــامِ

أدْرِكوا ثأْرَهُمْ فذاك لديْهِم مثـــــــــــــــــــــــلُ .. ردِّ الأرواحِ في الأجســـــــــــــامِ

لم تُقِـــرُّوا العيـــونَ مـــنهم بِنَصْرٍـــ ∴ فـــــأقِرُّوا عيـــــونهمْ بانتقـــــام

أنقِـــذُوا سَـــبْيُهُمْ وقـــلَّ لهُـــمْ ذا ∴ ك حفاظـــــاً ورعْيَـــــةً للـــــذِّمام

عـــارُهُمْ لازمٌ لكُـــمْ أيُّهـــا النَّـــا ∴ سُ لأنَّ الأديـــــانَ كالأرحـــــام

إن قعـــدتُمْ عـــن اللعـــينِ فـــأنْتُمْ ∴ شركـــــاءُ اللَّعـــــينِ في الآثـــــامِ

بـــادروهُ قبـــلَ الروَّيـــةِ بـــالعَزْ ∴ م وقبـــــل الإسراج بالإلجـــــام

مـن غـدا سرجُـهُ عـلى ظهـرِ طِـرف ∴ فحـــرامٌ عليـــه شـــدُّ الحـــزام

لا تطيلـوا المقـام عـن جنَّـة الخلـــ ∴ ـــدِ فـــأنتمْ في غـــير دار مُقـــام

فاشـــتروا الباقيـــات بـــالعرض الأد ∴ نـــى وبِيعـــوا انقطاعـــه بالـــدَّوام

وقـد تـأثر ابـن الرومـي كثـيرا لمـا أصـاب النـاس، ولمـا أصـاب مدينـة البصرـة مـن خـراب، وصـور مـا فعلـه الـزنج بالنـاس مـن تعـذيب وإذلال، ومـا ألحقـوه بالبصرـة مـن تخريب في قصيدة طويلـة، هـي مـن أجمـل مـا في رثـاء البلـدان، لأن ابـن الرومـي رثاهـا مـن خـلال إحساسـه بالفاجعـة التـي أصـابتها وأصـابت أهلهـا، ومـن خـلال خوفـه مـن الشرـ والمـوت والـدمار،"وكـان دافعـه إلى ذلـك موقفـه الحضـاري الـذي يـرفض تهـديم مدينـة

عامرة بالحياة، ونبذه للعنف والدمار، إذ كانت نفسه تنفر من مناظر القبح والتشويه، وتجزع من رؤية الموت والدم"(١).

وقد صور في هذه القصيدة خراب المدينة، وتشرد أهلها، وما لحقهم من شر، وتأسى على تلك المدينة العظيمة، وتذكر ماضيها الزاهر، ثم ينتقل إلى الحديث عما أصاب الناس على أيدي الزنج من قتل وتشريد، ويفصل فى كل مشهد على عادته، فقد باغت الزنج أهل البصرة وهم نيام، وأعملوا فيهم السيف، ولم يراعوا كبيرا أو صغيرا، ولا رجلا أو امرأة، بل إنهم بالغوا في إلحاق الأذى بالناس، فاغتصبوا العذارى علانية، وفضحوا النساء المصونات المحجبات، وفرقوا بين أفراد الأسرة الواحدة بين قتل وسبي واغتصاب.

ومن هنا يكون مديحه للموفق، عرفانا بالفضل، وإحقاقا للحق، وليس مديح مجاملة أو تكسب، فقد رأى ابن الرومي في الموفق فارسا مغوارا، لا يخاف الأعداء مهما بلغوا من قوة، فقد ترك رغد الحياة، والعيش الهانئ، وسمت همته إلى قيادة الجيش، وإعداده للفتك بأعداء الدين، لذا انتصر عليهم، وشتت شملهم.

ويرى بعض النقاد: "أن رثاء البصرة كان عصبية من ابن الرومي لها دون الكوفة"(٢)، ولكن لو نظرت إلى تلك الفرية نظرة نقدية محايدة، نرى أن أخبار ابن الرومي وحياته ليس فيها ما يدل على هذا التعصب وإن كان هناك، فالتعلق بمدينته بغداد.

---

(١) ابن الرومى الشاعر المجدد. د/ على شلق- ط الهيئة العامة السورية للكتاب- ٢٠١٣م. ص١٤٢

(٢) ابن الرومى ملامح وأبعاد. د/ على شلق- ط الشركة الشرقية- بيروت- لبنان- ١٩٦٩م، ص٦٢.

فمن أين جاء هذا العزم والاعتقاد الخاطئ؟ لعل مرد هذا الرأي يرجع إلى: أن من يقرأ شعر ابن الرومي يرى فيه هجاء للكوفة وأهلها، فهل يعنى هذا الهجاء تعصبا للبصرة على الكوفة حتى يرثيها؟ أيكون هجاء شخص سببا في تفضيل مدينة على أخرى؟

إن كارثة البصرة قد عصفت بقلب ابن الرومي، وأقضت مضجعه، فعبر في أول القصيدة عما يحس ويشعر، ثم يصور دخول الثوار الزنج المدينة، يذبحون أهلها، ويبثون فيها الرعب، وهنا يغمض الشاعر عينه عن حقيقة الثورة، ولا يرى فيها إلا الذبح والقتل.

لقد أطفأت وحشية المهاجمين شعلة الحياة في المدينة، وحل الخراب في كل مكان، فقد دمروا وأحرقوا كل قصر وبيت، وأحالوا المدينة إلى أكوام من التراب والرماد، وهنا يبرز موقفه الحضاري جليا من خلال استحضاره لصور الحياة المدنية في البصرة، حيث الأسواق المزدحمة بالناس، والمراكب الضخمة التي ترسو في مينائها ثم تمضى إلى الأفاق، والقصور الجميلة والدور المحكمة، كل ذلك الجمال أضحى خرابا ودمارا، فابن الرومي ينحاز إلى الحضارة ضد الهمجية، وهو يمجد السلم الذي هو المدنية والسعادة والرخاء، ويدين العنف والحرب والحرائق والقتل.

فقد "بلغ ابن الرومي في قصيدته أفق الحرية، ومضى منعتقا من قيود المدح والهجاء، ومن نقمته على المنعمين، وشهواته للطيبات من المطعومات والغائبات، لأنه بلغ في مداه الفني الخاص، "فرجل الفن الأصيل أول ما يقوم بعد أن يفلت من الصدمة الأولى إلى أدواته، ولوحاته، ووسائله ليثبتها، وهكذا فعل ابن الرومي أخذ يبين بأسلوب الشاعر المصور ما حلّ بالبصرة، بعد أن بين منزلتها في صنع الحضارة،

فالبصرة موضوع فكرى، وابن الرومي مفكر موهوب، فهو يأسى جزعا للمقدار المشترك بينهما من حيث إنهما كائنان في كائن حي واحد"(١).

ولم يستطع ابن الرومي أن يتخلص من أسلوب أبى تمام في قصيدة عمورية، بل إن أسلوبه في قصيدته "يشبه أسلوب الإمام علّى، في التهويل على السامعين خطابيا، وتفجيع الحادثة ، ثم دعوة الناس إلى أن يثأروا وينتقموا لله لا للبشر، ويتداركوا قصورهم قبل أن يتم الفوات"(٢).

"وأسلوب ابن الرومي في شعره - وفى هذه القصيدة خاصة – أقرب إلى أسلوب النثر، فمنه تطويل القصائد من غير كلل، ومن عناية بالطرق المنطقية، واستخدام الروابط العقلية، وخروج عن ألسنة الشائعة بين نظام العرب في جعل البيت وحدة مستقلة، وقد أبقى ابن الرومي البيت مستقلاً عما سواه من حيث الإعراب، أما من حيث المعنى، فهو جزء من كل، لا يتم إلا في أبيات متعددة"(٣).

(١) ابن الرومى فى الصورة والوجود. د/ على شلق، دار النشر للجامعين- بيروت الطبعة الأولى ١٩٦٠م ، ص ٣٣٢- ٣٣٣ .

(٢) الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم. حنا الفاخوري ط مكتبة تونس ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م ص٥١٤ .

(٣) إضاءات نقدية "مقال رثاء ابن الرومي بين الإتباع والابتداع، قصيدة البصرة نموذجا" علي أصغر حبيبي السنة العدد الثالث- ١٣٩٠ه / أيلول ٢٠١١م. ص٧٦ .

المبحث الثاني
مستويات التكرار في القصيدتين

يعد التكرار من أهم المقومات التي تقوم عليها العملية الإبداعية في الشعر ويتضح هذا في أنواع متعددة، مثل تكرار البحر، والتفعيلة، والقافية، والروي، بل إن التكرار بعد مبدأً أساسيا في بنية الفنون جميعا، ابتداء من تكرار الإيقاعات باعتبارها عناصر زمنية، وانتهاء بتكرار الأنساق باعتبارها عناصر مكانية.

ويعتبر التكرار من أساليب التعبير عن النفس، ووسيلة يعبر بها الأديب عما يعتمل بداخله، وتصوير مشاعره، من خلال إلحاحه على بعض الألفاظ والمعاني التي تكشف عن جوانب خفية في شخصيته، لتقدم مشهدا كاملاً لرؤيته، والصورة التي يريد التعبير عنها.

وحين تلوح ظاهره التكرار في النص الأدبي فإنها لا تلوح عبثا، بل تؤدى الدراسة الداخلية للنص إلى الوقوف على بواعث هذا التكرار، الذي لا يأتي عفوا، بل يقصده الشاعر أو الكاتب، أي يقصده قصدا فنيا غير عامد أو ظاهر، بل قد يصعب على الناقد الاهتداء إلى دوافع هذا التكرار عند الشاعر.

فالوقوف على التكرار وأنماطه في أي قصيدة أمر يسير، ولكن تكمن الصعوبة في الكشف عن بواعثه في نفس الشاعر، وما يرشد به عن دخيلته، يضاف إلى ذلك كشفه عن بعض الدلالات الموضوعية والفنية للنص وصاحبه.

وقد عنى الباحثون في القديم والحديث بالتكرار، حيث عالجه الدارس النحوي مرتبطا بالتوكيد اللفظي، وجعل لهذا اللون أغراضا، منها: العناية بالمكرر، أو التهديد أو التهويل أو التلذذ، أو غير ذلك من الأغراض التي يأتي عليها التكرار.

وأما البلاغيون فقد اهتموا به لأغراض متعددة، يخلفها التكرار على سياق الكلام، ومنها: التوكيد والإفهام، أو التشويق والاستغراب، أو التوبيخ أو التوجع،

إلى غير ذلك من أغراض التكرار التي ارتضوها من خلال وجوده في تعبيرات الأدباء.

إذن كان لمصطلح التكرار حضوره ، وله عناية عند بلغاء العرب لغوييهم، فما تعريفه؟

يأتي التكرار في اللغة من الكرّ بمعنى الرجوع، يقول الفيروزآبادى: "كرر عليه كرا وتكراراً عطف وعنه رجع، فهو كرار ومكر بكسر الميم، وكرره تكريرا وتكراراً ، وكر كرة أعاده مرة بعد أخرى"(١).

أما في الاصطلاح فهو : "تكرار الكلمة أو اللفظة أكثر من مرة في سياق واحد، إما للتوكيد أو لزيادة التنبيه، أو التهويل، أو التعظيم، أو التلذذ بذكر المكرر"(٢) والتكرار من الظواهر الأسلوبية التي لقيت عناية واهتماما، لأنها أحد السبل إلى فهم النص الأدبي، ومن ثم مارس البلاغيون تطبيقها في كثير من الشواهد الشعرية والنثرية، لبيان ما تحمل من مضامين ومعان، وما ترشد إليه من أغراض، ذلك أن التكرار قد صحب بواكير الشعر العربي القديم، فكان له حضوره في أوائل النص الشعري الجاهلي الذي وصل إلينا، وذلك على نحو ما نجده في شعر المهلهل والحارث وغيرهما، ثم يدور مع عصور الشعر العربي حتى وصل إلى العصر الحديث.

لقد بدأ الحديث عن التكرار يتردد في أروقة المصنفات، حين تصدى هؤلاء جميعا لما روجه المشككون في كتاب الله والطاغين عليه، من شُبهات كان منها، أن في القرآن تكرارا، وأن التكرار يعد عيبا ينبغي أن تبرأ البلاغة منه، وأن يتنزه كتاب الله

(١) القاموس المحيط - الجزء الثاني ط دار الجيل – بيروت ١٩٩٥م ص١٣٠.

(٢) أنوار الربيع في أنواع البديع ابن معصوم المدني تحقيق/ شاكر هادى شكر- الجزء الخامس- طبعة النجف- مطبعة النعمان ١٩٦٩م ص ٣٤، ٣٥.

عنه، وهذه فرية وافتراء على التكرار، حين يحاولون نفيه وإبعاده عن أشد مناطق نفوذه التصاقا واشتمالا عليه، وهى مناطق وأجواء القرآن الكريم والشعر القديم.

وإذا تركنا القديم واتجهنا نحو العصر الحديث، نجد العناية والاهتمام من أدبائه، والنظر إليه نظرة تطوير، تواكب العصر الحديث وحركات التجديد الشعري، ومن هؤلاء نازك الملائكة، فقد اهتمت بهذه الظاهرة وتجلياتها في الكلمة الواحدة، وتكرار العبارة، وتكرار المقطع كاملا، وتكرار الحروف، وأشارت إلى أن "أسلوب التكرار يحتوى على كل ما يتضمنه أسلوب آخر من إمكانيات تعبيرية، إنه في الشعر مثله في لغة الكلام يستطيع أن يغنى المعنى ويرفعه إلى مرتبة الأصالة، ذلك إن استطاع الشاعر أن يسيطر عليه سيطرة كاملة ويستخدمه فى موضعه"(١).

ولأن التكرار من قوانين الفنون، التي منها الشعر، فله منه مكانة إذا أصاب موضعه ، فإذا لم يصب الغرض منه، ترى النقاد يسقطون شاعره ، حتى لو بلغ القمة كالمتنبي وأبى تمام.

أولا: مستويات التكرار في قصيدة الخريمي:

١ - تكرار الصوت وأثره:

أ - تكرار الحرف.

(١) انظر قضايا الشعر المعاصر نازك الملائكة ط دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٩٨٣م ص٢٩٣- ٢٦٤.

ويبدو تكرار الحرف صورة من صور التكرار الشائعة فى شعرنا العربى، سواء كان في العصر القديم أو الحديث، وله ((مزية سمعية وأخرى فكرية، فالأولى ترجع إلى موسيقاها، والثانية إلى معناها))(١).

ويعد الخريمي من أبرع الشعراء في فرض شعر المراثي، وهذا يرجع لقدرته الذاتية، والحس الرهيف، ولا ننسى البواعث الخارجية على نفس الشاعر، مثل الكوارث والمصائب الواردة عليه، ولا أقسى وأصعب على النفس المرهفة من تحطم مدينتها وتخريبها، فتغيم النفس، ويعتكر الصدر، وتجشم الهموم على مشاعر الشاعر، فيحتاج إلى أن يخفف عن نفسه وطأة ما يجد، ومجال التخفيف عن النفس، ممثلة في حرف المدّ الذي يختم به كل بيت في قصيدته، فكأنه يطلق مع نهاية كل بيت شحنة من شحنات الغضب والألم التي تجتاح نفسه.

يقول الخريمي(٢):

قالوا ولم يلعب ببغداد وتعثر بها عواثرها

وإذا كانت القصيدة قد قامت على أسلوب المفارقة، بين الماضي المشرق والحاضر الكئيب، ولكنها قيلت بعد تخريب بغداد الخراب العظيم، فهل المدّ إخراج لما في النفس من ألم سواء في الماضي السعيد أو الحاضر المغبون؟

(١) التكرير بين المثير والتأثير د/ عز الدين السيد، ط دار الطباعة المحمدية / ط الأولى ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م ص٩ .

(٢) ديوان الخريمي. جمعه وحققه / على جواد الطاهري ومحمد جبار المعيبد ط دار الكتاب الجديد بيروت- ط الأولى- ١٩٧١م ص٢٧ .

فالمدّ في ألفاظ زمن الاستقرار والأمن والحضارة"حواضرها، زاهرها، عوامرها، مفاخرها"، ثم جاء المدّ في ألفاظ زمن الهمجية والوحشية "برابرها، ساعرها، صراصرها، كبائرها، فاجرها، ذاعرها".

فهل المدّ في ألفاظ الحضارة ألما وحزنا على ما كانت عليه الدولة من هيبة وقوة وعظمة وتقدم في شتى ميادين الحياة، والمدّ تعبير في ألفاظ الخراب والدمار، ألما وحزنًا على تهدم الحضارة والعودة إلى شريعة الغاب؟

أو أن هذا المدّ تعبير وبيان لبعد الرؤية والتفكير، وعدم تحكيم العقل والمنطق؟

وعلى الرغم من كثرة استخدام حرف النداء عند غالب شعراء رثاء المدن، لما يحمل من دلالات، وما يرشد إلى معان، وما يعبر عن أحوال نفس قائلة، فإن هذا النداء لم يتكرر في قصيدة الخريمي، ولم يرد إلا مرة واحدة، فلماذا هذه المخالفة؟ هل رأى الشاعر أن أهداف النداء لم تعد تصلح أن يستخدمها؟ هل لا يشعر بأهميتها في موطن رثائه؟

إن للنداء مزايا وسمات، ويحمل من المعاني الكثير، فهل حمل النداء الوحيد في القصيدة كل المعاني التي أرادها الشاعر وقصدها؟

يقول(١):

يا بؤس بغداد دار مملكة .. دارت على أهلها دوائرها

فالشاعر ينادى من لا يعقل"يا بؤس بغداد" لعل من يعقل يتدبر، وقد حمل هذا النداء كل المعاني التي يتحملها، من استغاثة، وتعجب وتحسر وتوجع وتأسف

(١) ديوان الخريمي ص١٣ .

وتلهف، فهل يتحسر ويتوجع على أيام بغداد الخوالي؟ وهل يستغيث بالعقلاء لإيقاف هذه المعركة؟

ب- تكرار الأداة:

- تكرار أدوات الاستفهام:

ويكثر استخدام أدوات الاستفهام في قصيدة الخريمي، وأكثرها "أين" وإذا كان الاستفهام يحمل لنا القدرة على تصوير باطن الشاعر ونفسه، ومعرفة ما تموج به وتضطرب، فإنه عبر عن معنى الفقد للأهل والأحباب، وعن تحول نفسه عن طبعها من السعادة والفرح إلى الحزن والألم، يقول:(١).

فأين حراسها وحارسها وأين مجبورها وجابرها

وقد استثمر الشاعر طاقات التعبير بالاستفهام، ليدل على مدى الألم والفضيحة لعدم وجود الحارس المدافع الذي يزود ويرد الكيد عن المدينة.

ثم يقول(٢):

وأين خصيانها وحشوتها وأين سكانها وعامرها

فالاستفهام حمل معنى التعجب، من ترك أهل المدينة جميعا مسئولية الدفاع عنها، والتخلي عن واجبهم في وقت تحتاج إليهم، ولم يستثن أحدا من أهلها فهي موطنهم جميعا، يدافعون عنه بأرواحهم وحياتهم.

---

(١) السابق ص٣٠ .

(٢) ديوان الخريمي ص٣٠.

ويتابع يقول(١):

أيـــــــن الجـــــرادية ـــــة الصقـــــالب والـــــ أحـــبش تعـــدو هـــدلا مشارفها

ثم: أين الظباة الأبكار في روضة الـــ ـــملك تهـــــــادى بهـــــا غرائرها

أيـــــــــن غضـــــــارتها ولـــــذتهـــــــــــا وأيـــــــن محبـــــورها وحـــــابـــرهـــــا

فقد صحب التكرار في الألفاظ تجدد المعاني التي يعبر عنها الشاعر؛ ليدل على أن العجب قد أخذ منه مبلغه، لتتنوع الصور والمعاني التي تدل على الخراب والتدمير.

ثم جاء الاستفهام "بهل" ليحمل معني الرجاء في العفو عن أصحابها، لتعود المدينة إلى سالف عهدها.

ومن أدوات الاستفهام التي كثرت في قصيدة الخريمى "هل"، يقول"(٢):

يـــا هـــل رأيـــت الجنـــات زاهـــر .. يـــروق عـــين البصـــير زاهرهـــا

وهـــل رأيـــت القصـــور شـــاوعة .. تكـــن مثـــل الـــدمى مقاصـــدها

وهل رأيت القرى التى غرس الـــ .. أمـــــلاك مخضرـــــة دســـــاكرها

(١) السابق ص٣٠ .

(٢) السابق ص٢٩.

فالاستفهام استدعى الصورة الزاهية لعاصمة الخلافة ودرة تاجها، بجناتها وقصورها وغرسها، ثم إذا بك تفيق على الواقع الأليم، وتغير الحال، فيكون الاستفهام تحسرا وندما وأسفا على هذا التبدل والتغير.

ومن ثم يتحول الاستفهام "بهل" إلى تمني عودة الوضع السابق لما كان عليه يقول:(١)

هل ترجعن أرضنا كما غبت وقد تناهت بنا مصائرها

وأما عن الأداة "كم الخبرية" والتي وردت بكثرة فى الشعر، لأنها تعنى أن هناك صورا تتداعى على مخيلة الشاعر وتنساب في ذهنه، فيريد أن ينقلها إلى متلقيه، فتكون"كم الخبرية" هي المعبر عن تعدد مظاهر الخراب، وتنوع مظاهر الدمار، وأما الخريمي فقد استخدمها مرة واحدة في قوله(٢):

كم قد رأينا من المعاصي ببغداد فهل ذو الجلال غافرها

فإذا عدَّد الشعراء مظاهر الخراب والدمار، فقد استطاع الخريمى ببراعته أن يستوعبها في هذا البيت من خلال الأداة الخبرية"كم "، فإذا كانت رؤية الشاعر لكثرة المعاصي التي عبرت عنها الأداة وتنوعها، فإن القصاص من الله مقابلة كل ذنب وجرم بعقاب متنوع، ومن ثم لا يدهش الشاعر من كثرة الخطوب والدواهي التي حلت ببغداد، فأهلها من تسببوا لها في ذلك.

وأما إذا قرأت قصيدة الخريمى كاملة، فلن تجد لفظا يدل على البكاء والنحيب، فهل الشعراء أرق عاطفة وأسمى شعورا منه؟ هل جمد الدمع في عينه فلم ينزل؟ هل

(١) ديوان الخريمي ص٣٥ .

(٢) السابق ص٣١.

قلبه أشد قسوة من قلوب غيره؟ هل كان يعلم بهذا المصير من خلال قراءة الأحداث، فتوقع المعارك وما تؤدى إلى خراب ودمار؟

فإن للخريمي مزية في قصيدته، فإذا كان شعراء الرثاء قد عبروا بالبكاء والنحيب على مدى ما أصابهم وأصاب مدنهم، فهم حزنى متألمون، وهى أن صوره هي التي تنطق بالبكاء، فتسيل الدموع من العين دون صوت، وهذا أشد وأقسى من البكاء بصوت، لأنه ربما كان البكاء بصوت تخفيفا عن صاحبه، انظر إلى تلك الصورة في قوله(١):

وافترقت بعد ألفة شيعا ∴ مقطوعة بينهما أواصرها

ولأسلوب المفارقة أثر واضح في تصوير هذا السيلان للدمع دون صوت، فإذا كانت بغداد تبدو في أبهى صورة وأحلى زينة، على نحو ما جاء فى قولة":(٢).

يا هل رأيت الجنان زاهرة ∴ يروق عين البصير زاهرها
وهل رايت القصور شارعة ∴ تطن مثل الدمى مقاصرها
وهل رأيت القرى التى غرس الـ ∴ املاك مخضرة دساكرها
محفوفة بالكرم والنخل والري ∴ حان ما يستقل طائرها

فماذا تفعل أمام الصور التالية التي فارقت بها المدينة ما كانت عليه إلا أن تسيل دموع عينك من بكائك الصامت بداخلك، يقول(٣):

فإنها أصبحت خلايا من الـ ∴ إنسان قد أدميت محاجرها
قفرا خلاء تعوي الطلاب بها ∴ ينكر منها الرسوم زائرها
وأصبح البؤس ما يفارقها ∴ إلفا لها والسرور هاجرها

(١) ديوان الخريمي ص٢٨ .

(٢) السابق ص٢٩ .

(٣) السابق ص٢٩.

٢- تكرار الكلمة وأثره :

أ- تكرار الاسم:

ولأن الشاعر محب لوطنه، وعزيز على نفسه وقلبه، فقد آلمه ما حدث لبغداد من تحولها إلى أطلال، تبعث في النفس الأسى والحزن، وإذا كان اللهّ قد جعل الإخراج من الديار مساويا أو معادلا للقتل الذي يخرج الإنسان من عداد الأحياء، فما بالنا بمن يعيش في وطنه لحظات فارقة، بين ما كان وما هو كائن، فقد عاش عزها ومجدها، ونهضتها وتطورها، ثم كانت المفارقة الواقعية التي صحبها مفارقة في الأسلوب، بعد أن تم تدميرها وتخريبها، ومن ثم ترى الشعراء يكررون اسم "بغداد"، تلذذا بترديده، لما كانت تبعث في النفس من اللذة والمتعة، بمبانيها وقصورها وحدائقها وجناتها، وبكونها عاصمة العالم الحضاري في ذلك الوقت، وأما الخريمى فتراه يتحدث عن بغداد بمثل قوله:(١)

قالوا ولم يلعب الزمان ببغـ .. ـداد وتعثر بها عواثرها

فالذكر هنا تلذذ، لأن هذه المدينة كالعروس، وكجنة الخلد، والتى تنفجر بالنعيم، ومن ثم قلت نوائبها وعواسرها، ولما تغير حالها بالمفارقة، تغير أسلوب الشاعر مفارقا بين الحالة الماضية، وبين الواقع الأليم، يقول:(٢)

كم قد رأينا من المعاصي ببغداد .. فهل ذو الجلال غافرها
حلت ببغداد وهى أمنة .. داهية لم تكن تحاذرها

(١) ديوان الخريمي ص٢٧ .

(٢) السابق ص٣٠ .

فذكر بغداد هنا على سبيل الحزن والألم، لما ارتكب من معاصي، فكانت الداهية التي حلت بها، وما ذلك الحزن إلا حقا لها، وتحسرا على ما حلّ بها.

بل ويزيد من ألمه وحزنه هذا الحصار الذي أحاط بها من كل مكان، يقول:(١)

من يبر بغداد والجنود بها ∴ قد ربقت حولها عساكرها

فذكر بغداد ألم في قلب الشاعر، وغصة في حلقه، على هذا المصير الجديد الذي أصبحت عليه، وما أقساه من مصير، أن يكون عنوانه الذل والمهانة، يقول:(٢)

فتلك بغداد ما تبنى من الذ ∴ لة في دورها عصافرها

ب- تكرار الفعل:

وإذا كان شعراء رثاء المدن قد استخدموا تكرار الأفعال في قصائدهم، لأنها ملائمة للتعبير عن التغيرات التي أصابت الأمة، ما كانت عليه، وما آلت إليه، وما يريد الشاعر منهم في وسط هذا الجو الكثير المفارقات، ذلك أن الأفعال تدل على الحدوث والتجدد، فإن الخريمي لم يكرر أفعاله، لأنها من جانب تدل على الزمن والحدث، فالحدث فيها مرتبط بزمنه، فكأنه أراد لأحداثه ألا تكون مرتبطة بزمان، فإن التكرار يكون الوسيلة على تأكيد هذا التزامن والارتباط، بينما يريدها صالحة لأن تعبر عن كل مرحلة يحدث فيها ما حدث لبغداد، فعلى المرء أن ينظر في الأسباب أو العوامل التي أدت إلى ذلك، وعليه أن يبحث في نفسه ونفوس الآخرين عن إبطالها وإماتتها واستئصالها من جذورها، حتى لا يحدث ما حدث من تحطيم وتدمير لكل ما

(١) ديوان الخريمي ص ٣١.

(٢) السابق ص٣٢.

تنتجه يد البشر من حضارة وعمران، ومن ثم كان التكرار الوحيد للفعل في قوله"(١):

جنة خلد ودار مغبطة ∴ قل من النائبات واترها
درت خلوف الدنيا لساكنها ∴ وقل معسورها وعاسرها

جـ- تكرار ألفاظ الموت:

وقد صحب الحديث عن المدن الزائلة عند الشعراء ذكر الموت، فزوالها موت للحياة فيها موت للإنسانية، وموت للعلم، وموت المكان بكل ما يحمل من مشاعر وإنسانيات.

وأما الخريمي فقد خالف الشعراء جميعا في هذا الربط بين الزوال والموت، ولم يرد ذكر الموت في قصيدته الطويلة إلا مرة واحدة، يقول"(٢):

كتائب الموت تحت ألوية ∴ أبرح منصورها وناصرها

فهل أجمل الخريمى ما فصله غيره من الشعراء في هذا البيت، فحمل كل المعاني التي عبروا عنها في قصائدهم؟

فإذا تحدث الشعراء عن سوق أهل بغداد للموت بهذه المعركة، وإذا كان هناك من أحب الموت على أن يعاين ويشاهد ما يجرى تحت بصره وسمعه من آلام وعذاب، وما يشاهد من صور منكرة، وإذا تحدث البعض عن شماتة الحاقدين في موتهم، فإن الخريمي قد أحل الموت محل كل جندي في هذه المعركة بالاستعارة "كتائب الموت"

(١) السابق ص٢٧ .

(٢) السابق ص٣٢ .

فكأن الموت قادم لا محالة، يقضي على كل مظاهر الحياة، التي راح الشعراء يعددون صورها في أشعارهم.

ولعل بكاء الشعراء الذين رثوا المدن والممالك الزائلة، وأصبحت قصائدهم مجالا يجتمعون فيه مع غيرهم على البكاء والتعداد على هذا البلد الذي مات بالخراب والتدمير، وعلى الحضارة التي لفظت أنفاسها، بالهدم والتحطيم، وهى فطرة الله التي فطر الناس عليها، البكاء والنحيب عند موت من يحبون أو يتعلقون.

٣- التكرار البديعي وأثره .

أ- الجناس:

وإذا كان الجناس من الألوان البديعية التي يكثر استخدامها لما لها من دور في تصوير موقف الشاعر وحسن التعبير عن نفسه، وإرشاد القارئ إلى خفايا مقاصده ، فإن الخريمي قد استخدمها في قصيدته ، لترشد عما يحس ويشعر تجاه مصابه لما حل ببغداد ، مشاعره النشوى حال نهضتها واستقرارها وعيش أهلها الرغد، وحسرته وأسفه في أسلوب المفارقة على زوال حضارتها وانكسار بعد مجد وعز وسيادة على الدوام .

كما أنه "لم يعهد في فن أن كثرت تعاريفه، واتسعت مسائله، واختلفت صوره كما هو الحال في الجناس، لذا فإن وضع حد لهذا الفن يجمع أطرافه ويلم شتاته ليس بالأمر السهل الهين، ومن ثم فإن الكاتبين في البلاغة يفرون من وضع تعريف له، ويكتفون بوضع تصور أو ضابط لنوع من أنواعه أو فرع من فروعه .. ويفهم من

كلام القدماء أن الجناس عندهم اتحاد طرفيه أو تشابههما فى الصورة والتلفظ مع اختلاف المعنى"(١).

فما الأهداف التي قصدها من استخدامه في حالتي المفارقة بين ما كانت عليه بغداد وما آلت إليه ؟

يقول عن بغداد في حالة استقرارها قبل أن يلعب الزمان بعقول أبنائها ليحدث الشقاق الذي أعقبه التدمير:(٢)

وقالوا ولم يلعب الزمان ببغداد وتعثر بها عواثرها

فجناس الاشتقاق (تعثر ، عواثرها) تجسيد لهذه العواثر التى لولاها ما حدث لبغداد من تحول لزمنها الجميل إلى زمن لم يكن يتمنى أن يعيش واقعه .

لكن ما صور الجناس التي صاحبت كل مرحلة من المرحلتين المخالفتين التي عاشتها بغداد ؟

انظر إليه يقول عنها في حالة إقبال الدنيا عليها بالحضارة والعز:(٣)

ذرت خلوف الدنيا لساكنها وقل معسورها وعاسرها

فالجناس (معسورها وعاسرها) مظهر من مظاهر النعيم وآية من آيات الرخاء .

(١) الفنون البديعية في دائرة البحث البلاغي. د/ فوزي السيد عبد ربه- مطبعة الحسين الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م . ص١٨٩، ١٩٠ .

(٢) ديوان الخريمي ص٢٧ .

(٣) ديوان الخريمي ص٢٧

قصد به الشاعر أن يصف ما عاين من أحوال الناس وكيف كانوا ينعمون بعيشهم ويهنئون.

ولا يتحقق النعيم ورغد العيش إلا بنهضة علمية، تقيم حضارة وتخترع وسائل للحصول على أسباب عيش هانئ واسع ، يقول:(١)

سعى رجال في العلم مطلبهم ∴ رائحها باكر و باكرها

فالجناس (باكر و باكرها) يعنى ضرورة السعي مبكراً في طلب العلم إذا أردت أن تقيم حضارة فلابد أن تكون أول من يفض أسباب البكارة، باقتحامها ووضع قدميك على بداية طريقها .

ثم انظر إلى جناس صور المفارقة ، بعد ما حلت الخطوب والنوازل ببغداد، يقول الخريمى:

فأين حراسها وحارسها ∴ وأين مجبورها وجابرها

فكأن الجناس قد أرشد عن أهمية الإتحاد والتعاضد، حين يتعرض أمنك وما اجتهدت في تشييده للدمار، فلا يكفى أن تقوم طائفة دون أخرى ، بل الجميع موكول إليه أمر هذا الدفاع والصيانة، فإذا لم يتكاتف الجميع، وتتعاضد سواعدهم فإن الخريمى ينبه إلى ما يؤول إليه حالهم ، يقول(٢):

طالعها السوء من مطالعه ∴ وأدركت أهلها جرائرها

فلا أسوأ من أن يطلع على ما بنيت وشيدت السوء ليهدمه ، ويقوض بنيانه ويحطم أساسه .

---

(١) السابق ص٣٧.

(٢) ديوان الخريمي ص٣١ .

وما أقسى أن يأتي السوء إلى ما بني الإنسان وشيد من داخله، حين ينشب الصراع والنزاع، ويقع الخصام، فيحدث الصدام يقول(١):

بل هل رأيت السيوف مصلته .. أشهرها فى الأسواق شاهرها

فإشهار كل منا السيف في وجه أخيه وصاحبه ، يزرع نار الحقد ومحاولة التشفي، ما يؤدى إلى عدم انتباه كلا الطرفين لما يقوم به من تهديم وتقويض وتحطيم .

ب- رد العجز على الصدر

وجاء رد العجز على الصدر في قصيدة الخريمي لأهداف يحققها هذا اللون، إذ يحقق تكراره نوعاً من اكتمال المعنى أراد الشاعر بيانه، أو تمامه وتوضيحه، أو توكيده وتحقيقه في ذهن المتلقي .

وللخريمي أهداف متعددة من وراء رد العجز على الصدر سواء في وصف بغداد أيام عزها ومجدها، أو لما فارقها هذا الحال، وأضحت على حالة من الخراب والدمار يقول عن بغداد مفاخراً بحكامها ، ويعدد صفاتهم التي ملكوا بها القلوب:(٢)

أهل العلا والندى وأندية الـ .. ـفخر إذا عددت مفاخرها

فتأكيد الفخر دليل على حقيقة وجوده وأنه ليس مفتعلاً أو دخيلاً على طبعهم وشخصيتهم وإن جاء لفظ " إذا عددت " ليعنى أن الصفات المذكورة ليست هي كل صفاتهم التي ملكوا بها القلوب وحكموا بها النفوس .

---

(١) السابق ص٣٣ .

(٢) ديوان الخريمي ص٢٨ .

ولـو انتقلنـا إلى مـوطن أخـر إلى هـذا اللـون البـديعي في معـرض حديثـه عـن مظـاهر وآيات رقيها وتطورها، وما أنتجته يد الحضارة، يقول(١):

يـــا هـــل رأيـــت الجنـــان زاهـــرة ∴ يـــروق عـــين البصـــير زاهرهـــا

فالجنـان زاهـرة يانعـة، متعـددة النباتـات والـثمار، وقـد تـم تحقيقهـا وهندسـتها بصورة تمتع العين وتروق النفس ، فتنسى آلامها، ويزول همومها .

وأمـا إذا فارقهـا حسـنها وبهجتهـا، وزال عنهـا عزهـا وحضـارتها ، جـاء أسـلوب الشـاعر مناسـباً لتلـك المفارقـة ، وجـاءت صـوره لتؤكـد هـذا التحـول والتغـير، ويـأتي رد العجز على الصدر أيضاً ليدعم هذا الانتقال ويشرح حقيقة هذا التغير . يقول(٢):

مـــا زال حـــوض الأمـــلاك يحفـــره ∴ مســـجورها بـــالهوى وســـاجرها

فقـد ذهبـت الصـور التـي تـروق العـين ، لتحـل محلهـا الصـور التـي تفـزع الـروح، وترعـب القلـب ، فـالبحر المسـجور هـو الممتلـئ نـاراً، فهـل اسـتخدام أداة بنـاء الحضـارة وهو النفط ليشتعل فيها بنت أيدي الإنسان ليرقى ويتقدم ؟

لقد دارت الـدوائر عـلى بغـداد، وتعـددت وسـائل الهـدم والتـدمير، فسـارت وأهلهـا إلى البؤس والشقاء، يقول(٣):

يـــا بـــؤس بغـــداد دار مملكـــه ∴ دارت عـــلى أهلهـــا دوائرهـــا

(١) السابق ص٢٩ .

(٢) السابق ص٢٨ .

(٣) ديوان الخريمي ص٣١ .

جـ- الطباق :

فما أصعب على نفس الخريمي المحب لمدينته، والعاشق لتقدمها ونهضتها، من تحول حالها، من حال حبها إلى حال لم يكن يتمنى أن يراها عليها ، ومن ثم ترى الألفاظ المتناقضة التي تعبر عن الموقفين المتناقضين في نفس الشاعر واللذين يسببان الألم لمشاعره والعذاب لروحه ونفسه.

ففي حديثه عن بغداد وهى جنة وعروس للدنيا قد أخذت بكل مظاهر الزينة والجمال، فتبهج وتسعد كل من ينظر إليها بالمرور والزيارة وتجعل كل مقيم بها لا يقوى على المفارقة والمغادرة، يقول(١):

إذ هي مثل العروس باطنها .. مشوق للفتى وظاهرها

فما أجمل تلك العروس، إنها لا تعنى بزينتها الظاهرة ، لتخدع برونقها وطلائها الخارجي وإنما تعنى نفس العناية بمظهرها الباطني لتتكامل في نفس عاشقها .

بينما نراه يقول متحدثاً عن أهم الأسباب التي أدت إلى تدميرها، ومن ثم البكاء عليها ، يقول(٢):

وافترقت بعد ألفة شيعاً .. مقطوعة بنيها أواصرها

فالطباق بين "افترقت شيعاً، ألفة " يظهر اضطراب نفس الشاعر وحيرته أمام هذا التحول الذي أدى إلى هذا التناقض ويزداد حزنه واضطرابه، لأهم مظهر ترتب على هذا التحول، وهو تقطيع الأواصر وروابط المحبة بين الناس.

ومن ثم كان من النتائج التي ترتبت على ذلك، قوله(٣):

---

(١) السابق ص٢٧ .

(٢) السابق ص٢٨ .

(٣) ديوان الخريمي ص٢٩ .

وأصبح البؤس ما يفارقها .. إلفاً لها والسرور هاجرها

فعلاقة التضاد بين البؤس والسرور تدل على التغير بعدم مفارقة البؤس وهجر السرور ، ليدوم الأمل والحزن .

وينصح الخريمي، ولكن جاءت نصيحته متأخرة قد فات أوان الإنصات والتدبر لها يقول(١):

لا تعلم نفس ما يبايتها .. من حادث الدهر أو يباكرها

فعلاقة التضاد بين " يبايتها ويباكرها " تعنى ألا تغفل عن حوادث الدهر وأنت في عز مجدك وحضارتك ، فتقلب الأيام ودوران الليالي قد يغيران ما أنت عليه وقد دل على ذلك الواقع المشاهد ، وما حدث لبغداد .

وفى نهاية القصيدة يتذكر الخريمي أسباب نهضة الأمة وتقدمها ممثلة في اجتماعها على قائد واحد وخليفة واحد، تنقاد لأوامره وتنصاع لتوجهاته، فإذا حدث الخلاف عليه وعلى انفراده بالسلطة كانت الطامة الكبرى يقول(٢):

سمت إليه أمال أمته .. منقادة برها وفاجرها

فالعلاقة بين " برها وفاجرها " تظهر أنه على الرغم من اختلاف الطبع والسمة والعمل، فإن وجود المأمون قد جمع بين هذين المظهرين المختلفين، ليوحدهما في سمة الانقياد والطاعة له .

ويؤكد على حقيقة الطباق السابق طباق آخر يدل على انقياد الناس للمأمون على اختلاف مكان عيشهم، جبال أو سهول أو حتى قيعان، يقول(٣):

---

(١) السابق ص٣١ .

(٢) السابق ص٣٦ .

(٣) ديوان الخريمي ص٢٩ .

واستجمعت طاعة برفقك ∴ مون بخديه وغائرها

٤- تكرار الصور :

ويكرر الخريمي في قصيدته العديد من الصور، التي أراد من ورائها بعث الأسى والحزن على ما حل بعاصمة الإسلام ومنارة الحضارة، فقد نقل الشاعر المتلقي بهذه الصور ليعاين المشهد، ويرى بعين رأسه ما كانت عليه بغداد، وما أصبحت، ثم أراد أن يؤثر في المتلقي، بنقل صور مختلفة للنساء، ما جرى لهن، وما حدث معهن ليستثير الحماسة والنخوة ، فيسعى إلى وقف الحرب وويلاتها، والنظر إلى الأثر المترتب عليها، وعدم تمكين الأسباب التي أدت إليها أبدا .

لقد ألح الخريمى على بعث الأسى والحزن من خلال تكرار صور بغداد قبل النكبة بتصوير مظاهر الجمال وآيات الحسن، يقول(١):

جنة خلد ودار مغبطة ∴ قل من النائبات واثرها
درت خلاف الدنيا لساكنها ∴ وقل معسورها وعاسرها
وانفرجت بالنعيم وانتجعت ∴ فيها بلذاتها حواضرها
فالقوم منها في روضة أنف ∴ أشرق غب القطار زاهرها

ثم يعيد ويكرر الحديث عن صورة بغداد ، يقول(٢):

يا هل رأيت الجنان زاهرة ∴ يروق يمين البصير زاهرها
وهل رأيت القصور شارعة ∴ تكن مثل الدمى مقاصدها
وهل رأيت القرى التي غرس الـ ∴ أملاك مخضرة دساكرها
محفوفة بالكروم والنخل والري ∴ حان ما يستقل طائرها

(١) السابق ص٢٧ .

(٢) السابق ص٢٩.

إنها مظاهر الحضارة التي شيد الإنسان أساسها وأقام دعائمها، ووازن بين مطالب المادة والروح، فكان سر عظمة حضارته، حين أوجد هذه المناظر الخلابة التي تسعد الروح وتبهج النفس.

ثم انظر إلى المفارقة في الصورة، لما حل النزاع والشقاق، وكيف تحول العمران خرابا، والمبهج للنفس سببا في الكآبة والتعاسة، يقول(١):

فإنها أصبحت خلايا من الـ ∴ إنسان قد أدميت محاجرها
قفرا خلاء تعوي الكلاب بها ∴ ينكر منها الرسوم زائرها
وأصبح البؤس ما يفارقها ∴ إلفا لها والسرور هاجرها

فما بالك بمدينة زاهرة عامرة، تتحول من خلال وصف الشاعر إلى "خلايا من الإنسان، أدميت محاجرها، قفرا تعوي الكلاب بها، البؤس ما يفارقها إلفاً لها، السرور هاجرها" فلابد أن تغيم نفسك، وتكتئب روحك، ويعتكر مزاجك، ألما على هذا التحول.

وينتقل الشاعر من مكان لآخر، ليحدثك ويصف لك ما حل ببغداد من خراب وتدمير، فينتقل من صورة إلى أخرى، يوضح من خلالها الأسباب التي أدت إلى الوصف السابق، يقول فيها(٢):

فتلك بغداد ما تبنى من الذ ∴ لة في دورها عصا فرها
محفوفة بالروي منطقة ∴ بالصغر محصورة جبابرها
ما بين شط الفرات منه إلى ∴ بحلة حيث انتهت معابرها
نار كهادي الشعراء نافرة ∴ تركض من حولها أشافرها
يحرقها ذا، وذاك يهدمها ∴ ويشتفي بالتهاب شاطرها

(١) ديوان الخريمي ص٢٩.

(٢) السابق ص٣٢.

وقد أكد الخريمي على المنظر السابق مرة أخرى بصورة مكررة مختلفة الألفاظ ، يقول(١):

بل هل رأيت السيوف مصلته ∴ أشهرها في الأسواق شاهرها
والخيل تسن في أزقتها ∴ بالترك مسنونة خناجرها
والنفط والنار في طرائقها ∴ وها بيا للدخان عامرها

لقد أتت الحرائق في كل مكان على الأخضر واليابس، فدمرت وخربت وحطمت، وعادت بغداد أطلالا بعد عمران وحضارة.

ولاستنهاض الهمم وإحياء العزيمة والنخوة في النفوس، يكرر الخريمى صورة ما حدث لنساء بغداد على أثر هذه المعركة، وأحرص ما يحرص عليه العربي أهل بيته، إنهم الشرف الذي يفتديه بالغالي والنفيس، فإذا عدد له الصور وكررها، بعث همته، إما بمحاولة الإصلاح بين المتقاتلين لوقف نزيف الخراب والدمار، أو الزود والدفاع إذا كان المقاتل من الأعداء، لننظر إليه يصف حال المرفهات المنعمات(٢):

والنهب تعدو به الرجال وقد ∴ أبدت خلاخيلها حرائرها
معصوصبات وسط الأزقة قد ∴ أبرزها للعيون ساترها
كل رقود الضحى فحبأة ∴ لم تبد في أهلها محاجرها
بيضة حذر مكنونة برزت ∴ للناس منشورة غدائرها
تعثر في ثوبها وتعجلها ∴ كبة خبل ريعت حوافرها
تسأل أين الطريق والهة ∴ والنار من خلفها تبادرها

ثم ينتقل بالتكرار إلى صورة أخرى، ولكن هذه المرة للنساء الثكلى التى فقدت ذويها وأولادها، فيصف ما حدث لها من أثر هذا العراك،

(١) ديوان الخريمي ص٣٣، ٣٤.

(٢) السابق ص٣٤.

يقول(١):

يـا هـل رأيـت الـثكلى مولولـة ∴ في الطـرف تسـعى والجهـد باهرهـا
في إثـر نعـش عليـه واحـدها ∴ في صـورة طعنـة يسـاورها
فرغـاء ينقـى الشـنار مريـدها ∴ يهزهـا بالسـنان شـاجرها
تنظـر في وجهـه وتهتـف بالثـ ∴ ـكل وجـارى الـدموع حادرهـا

وبعـد هـذه النظـرة الخاصـة فيما جـرى لـبعض طوائـف مـن نسـاء بغـداد، يعـود الخريمى بالكاميرا إلى الخلف، لتستوعب الصورة كل النساء ، يقول(٢):

أمـا رأيـت النسـاء تحـت المجـا ∴ نيـق تعـادى شـعثا ضـفائرها
عقائـل القـوم والعجـائز والـ ∴ عـنس لم تحتـبر معاصرهـا
يحملـن قوتـا مـن الطحـين عـلى الـ ∴ أكنـاف معصـوبة معاجرهـا
وذات عـيش ضـنك ومقعسـة ∴ تشـدخها صـخرة تعاودهـا
تسـأل عـن أهلهـا وقـد سـلبت ∴ وابتـزعن رأسـها غفائرهـا

ثانياً: مستويات التكرار في قصيدة ابن الرومي:

وقبـل أن نعـرض لمسـتويات التكـرار في قصـيدة ابـن الرومـي، نعـرض لقضـية: أيهـما أجـدى للفنـان في عملـه، هـل لابـد مـن المعاينـة والمشـاهدة للحـدث حتـى يـتمكن مـن الإجـادة في الوصـف والبراعـة في التصـوير؟ أم يمكـن لـلأذن أن تحـل محـل العـين مرتبطـة بإحساس الشاعر وبراعته ومقدرته على وصف الحدث وكأنه عاينه؟

(١) ديوان الخريمي ص٣٤.

(٢) السابق ص٣٥.

ترى د/ وديعة طه نجم: "أن ابن الرومي متأثر- سماعا- لما حدث، فالقصيدة تكاد تكون خالية من الانفعال المباشر للشاعر، يسودها تعبير تقليدي عن الهم وإثارة الهمم"(١).

فهل أدت عدم الرؤية إلى عدم الإجادة؟ هل تنفى عن القصيدة أي مظهر للجمال، ألا يستطيع الشاعر أن يعوض بفنه وموهبته نقصا في أحد جانبي عملية الإبداع السماع أو الرؤية؟

ويرى ركان الصفدي أن هذا "أمر طبيعي لأن ابن الرومي لم يكن شاهد عيان على هذه الكارثة بل إنه لا يعرف البصرة إلا سماعاً، وهو الذي لم يغادر مدينته بغداد، غير أن هذا الأمر ليس بذي بال، وما يهمنا هو مدى نجاحه في هذا الموضوع، وتعتقد أنه لم يقدم لنا نموذجا روميا فذا، كما فعل قبله الخريمي الذي رصد تفاصيل الأحداث في مشاهد حية مؤثرة، ولعل ابن الرومي نظم هذه القصيدة تقربا من مواليه العباسيين، فهو في تلك المرحلة من عمره، كان لا يزال يعيش في كنفهم، أو بإيعاز من القائد العباسي الذي تولى التصدي لثورة الزنج، وربما أراد محاكاة قصيدة الخريمي نفسها، وهى القصيدة المشهورة التي كانت حية في نفوس أهل ذلك العصر"(٢).

على أن هذا الرأي ليس الفصل أو الحتم في هذه القضية، فكم رأينا شعراء لم يعاينوا ولم يشاهدوا، بل ساروا على درب غيرهم، ومع ذلك خرجت أعمالهم غاية في الحسن وآية في الجمال، تعادل النص المحاكى، إن لم تكن تتفوق عليه، على الرغم من أن صاحب النص الأصلي قد عاين وشاهد، فالمهم هو براعة الشاعر ومقدرته على

(١) الشعر في الحاضرة العباسية في القرنين الثاني والثالث الهجري. وديعة طه نجم- ط دار السياسة الكويت- الأولى ١٩٧٧م- ص٨٦.

(٢) ابن الرومى الشاعر المجدد ص١٤٥.

الإحساس بآلام الناس وأتراحهم أو أفراحهم، وإلا لماذا ينبغ الشاعر ويقدم على غيره؟ أليس لأنه أحسن التعبير عما نحس ونعانى ولا نستطيع أن نعبر عنه بمثل تعبيره عن نفوسنا وإحساسنا؟ أليس التجاوب يحدث من التناغم في حسن الأداء وحسن التعبير بشرح النفس؟

«وقد تأثر ابن الرومي كثيرا لما أصاب الناس، ولما أصاب مدينة البصرة من خراب، وصور ما فعله الزنج بالناس من تعذيب وإذلال، وما ألحقوه بالبصرة من تخريب في قصيدة طويلة هي من أجمل ما قيل في رثاء البلدان، لأن ابن الرومي رثاها من خلال إحساسه بالناصية التي أصابتها وأصابت أهلها، ومن خلال خوفه من الشر والموت والدمار(١)».

وقد صور ابن الرومي في هذه القصيدة فجائع أهل البصرة في أنفسهم وأموالهم، وبإحساس الشاعر الرهيف راح يرسم مشاهد الخراب، والدمار، ومشهدا بعد الآخر، وما جرى من ألوان التعذيب وصنوف التنكيل والقتل التي عمت المدينة وأهلها، وبالرغم من أن هذه القصيدة تعد من شعر المناسبات عند ابن الرومي، إلا أنها تعد من قبيل الشعر الصادق، لأنها تعبير عن حدث اتصل بمشاعر المسلمين جميعا، فقد تأثر ابن الرومي بما فعله الزنج بالناس في البصرة من تعذيب وإذلال، وما فعلوه بالمدينة من تخريب وهدم، وقد أجاد الشاعر الوصف والبراعة في التصوير، لإحساسه بالفاجعة .

وتأتى الإجادة في الوصف من خلال دقة إحساس الشاعر ورهافة مشاعره، التي تأثرت بهذه المباغتة من الزنج لأهل البصرة وهم نيام، فأعملوا فيهم السيف، ولم

(١) مجلة التراث العربي مقال "المؤثرات البيئية والشخصية في شعر ابن الرومى- د/ محمد عبد القادر أشقر التراث العربي- سوريا- العدد رقم ٩٩- ١٠٠ ، يوليو ٢٠٠٥م ص٣٥.

يفرقوا بين من يمتد إليه السيف كبيرا أم صغيرا، رجلا أم امرأة، ومما أوجع مشاعره فتحركت أحاسيسه الشعرية، ما حدث من اغتصاب للعذارى، وفضح للمصونات المحجوبات عن الأعين، وتفرق الأسر وتشردها، وذهاب كل فرد من أفرداها بين القتل والسجن والاغتصاب.

" لقد بلغ ابن الرومي في قصيدته هذه أفق الحرية، وخلص من الواقع إلى عالم الصورة"(١).

وبعد عرض قضية الشاعر بين المعاينة والسماع، ومدى إجادته فى فنه تبعا لذلك، نعرض الآن لمستويات التكرار فى قصيدة ابن الرومى:

١- تكرار الصوت:

ويعد التكرار الصوتي بصوره المختلفة من مظاهر شعر ابن الرومي، وقد اتخذ صورا متنوعة منها:

أ- تكرار الحرف.

وهو اللون المشهور عند شعراء العربية جميعا، وله مزايا يقصدها الشاعر من وراء تكراره، منها السمعي، ومنها الفكري، فالسمعي يرجع إلى موسيقاه التي يحدثها تكراره، فتزيد الموسيقى في القصيدة وتطول مساحة التطريب، والفكري يرجع إلى المبنى الذي أراد الشاعر إتمامه من وراء تكراره، ومن أبرز الحروف المكررة في هذه القصيدة.

(١) إضاءات نقدية "مقال رثاء ابن الرومى بين الإتباع والابتداع، قصيدة البصرة نموذجا" على أصغر حبيبي ، ص٧٦.

- **حرف المد**، فالقصيدة التي يلتزم قبل رويها حرف مد، تعد من أعلى مراتب الكمال الموسيقى، كما أنها تتيح للشاعر أن تطول مسافة إطلاقه للصوت، ليعبر عما تحمل نفسه ووجدانه من مضامين، يريد إيصالها للمتلقي.

يقول ابن الرومي متحدثا عما أصابه من أرق، أسهر جفنه، وجعل دموع عينه لا تنقطع جراء ما حدث لمدينة البصرة(١):

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام .. شغلها عنه بالدموع بالسجام

فهل حرف المد المكرر قبل الروي في كل أبيات القصيدة يرشد عن حالة الشاعر النفسية الحزينة المتألمة، فكأنه أراد أن يريح تلك النفس من عناء ما تجد، فكان هذا الألف ليخرج في مده كثيرا من الآهات الحزينة والآلام الشديدة التي يعانى، فيريح نفسه قليلا مما تجد؟ أو أن هذا المد يعبر عن حقيقة أراد الشاعر أن يوضحها لمتلقيه، وهى أنه إذا خربت البصرة فلن تجد من يصطدم به الصوت مهما أطلته، ليفيق من غيه ويعود إليه صوابه، فيقلع عن الحرب والقتال عن الذي يؤدى إلى التدمير والتخريب؟ لقد حمل هذا المد بالألف مظهر التعبير عن إطلاق صرخات الشاعر الموجوع لأقصى درجات الوجع، فامتدا معا- الحركة والفعل- امتداد مساحة الحزن واتساع مداه.

- **حرف النداء** :

وابن الرومي قد احتذى الخريمي، غير أن هذا الاحتذاء تمثل واضحاً في عدم تكرار النداء، على نحو ما سار عليه غالبية الشعراء الذين رثوا المدن والممالك الزائلة،

(١) ديوان ابن الرومى جـ٣ ، ص ٣٣٨ .

واحتذوا في ذلك الخريمي وابن الرومي، فجاء النداء في هذه القصيدة الطويلة مرة واحدة ، وردت في قول ابن الرومي(١):

يا عبادي ما غضبتم لوجهي .. ذي الجلال العظيم والإكرام؟

فلم المخالفة؟- بالرغم من تعدد أغراض تكرار النداء التي تصلح في هذا المجال، رثاء المدن الزائلة، والتي تبدو في الاستغاثة، والتأسف، والتوجع، والتحسر- وغيرها من الأغراض. هل ابن الرومي تأثر بالخريمي الذي عاين خراب بغداد ولم يكرر النداء؟ هل هو الاحتذاء الفني؟ أو أنه أدرك ألا فائدة لأن مصير البصرة سيؤول إلى مصير بغداد بالرغم من تكرار النداء بأغراضه في شعر شعراء رثائها؟

وإذا نظرنا في نداء ابن الرومي وجدنا أن المنادى هم جميع العباد، أي أهل مدينة البصرة، وأراد بندائه تنبيههم إلى الغضب فيما انتهك في هذه المعركة من حرمات، فلو أن العباد تدبروا أمر هذا النداء وحقيقته، لأقلعوا وانتهى الشقاق والخصام وتوقفت المعارك والحروب، فالله لا يرضى العدوان على حرمات المسلمين، ولا قتل النفس المؤمنة بغير حق، ولا أخذ الأموال بالسلب والنهب، وأن على المتخاصمين الجلوس إذا دعاهم الحكماء للصلح إن أرادوا أصلاحا، فحمل النداء الوحيد معنى التوقف عن السفك والهدم، ودعوة العقل ليحكم بين الناس.

ب - تكرار الأداة .

إذا أنعمنا النظر في قصيدة ابن الرومي في رثاء البصرة، رأيناه يكرر المعاني ثم يفصلها، كما أنه يكرر الألفاظ ويعيدها كثيرا، ولا يعنى التكرار هنا الإخلال أو الحشو

(١) ديوان ابن الرومي جـ٣ ، ص٣٤١.

للتطويل، لإثبات المقدرة والتفوق، وإنما يأتي مع تكرار الألفاظ تكرار في المعاني، يقول العقاد:

" إن هذا الاستقصاء كان سببا من أسباب الإطالة، ولكنه لم يكن كل السبب... يوقعه الاستطراد تارة في إهمال اللفظ، وتارة أخرى في الأساليب النثرية .. للإسهاب والإطناب والتفصيل والمراجعة والاستدراك، فينظم في هذه الحالة، وكأنه ينثر، إلا أنه لا يخلو من الشاعرية، ولا يسف إلى طبقة المتن المنظوم، والألفيات التي ليس فيها من الشعر إلا أنها موزونة مقفاة"(١).

- **تكرار « كم » الخبرية .**

صور ابن الرومي في قصيدته نكبة البصرة أبلغ تصوير، حيث إنها نكبة لم يشهد العرب مثيلها من قبل في حروبهم، يظهر هذا في وقوع أفعال الخراب والدمار التي تصيب الساكن والمسكون، فالحجر والبشر مرتبطان، فإذا تعرض البناء للتخريب والهدم، فلابد أن يغادره ساكنوه، ومن ثم جاء تكرار "كم" الخبرية، ليدل على التفجع والتحسر لما حل بها وبأهلها، يقول(٢):

كم أغصوا من شارب شراب .. كم أغصوا من طاعم بطعام؟

كم ضنين بنفسه رام منجى .. فتلقوا جبينه بالحسام؟

كم أخ قد رأى أخاه صريعا .. ترب الخد بين صرعى كرام؟

---

(١) انظر ابن الرومى حياته من شعره – عباس العقاد- ط مكتبة السعادة – القاهرة- ١٩٥٧م، ص٣١٦- ٣٢٢ .

(٢) ديوان ابن الرومي جـ٣، ص٣٣٩ .

كـــم أب قـــد رأى عزيـــز بنيـــه .. وهـــو يعـــلى بصـــارم صمصـــام؟

كـــم مفـــدى في أهلـــه أســـلموه .. حـــين لم يحمـــه هنالـــك حـــامى؟

كـــم رضـــيع هنـــاك قـــد فطمـــوه .. بشـــا الســـيف قبـــل حـــين العظـــام؟

كـــم فتـــاة نجـــاتم الله بكـــر .. فضـــحوها جمـــرا بغـــير اكتتـــام؟

كـــم فتـــاة مصـــونة قـــد ســـبوها .. بـــارزا وجههـــا بغـــير لثـــام؟

فانظر إلى فعل "كم" الخبرية التي عددت لنا تلك المشاهد المحزنة، التي أصابت الناس في البصرة، لم تفرق بين رجال أو نساء أو شيوخ أو أطفال، إنها صور يندى لها الجبين، تظهر ما عليه نفس الشاعر المتألمة الحزينة، من أسف وحسرة وتوجع لكل هذه الصور المخزية التي ارتكبها الزنج في حق أصحاب مدينة البصرة، فأين الضمير المسلم من فضح الفتاة البكر والاعتداء على بكارتها جهرا أمام أعين الجميع؟

إنها صور مؤلمة محزنة، وجاءت "كم" الخبرية لتعمق الإحساس بعظيم الأسف والحسرة والتحسر، ولتصور الفاجعة بآثارها النفسية.

- تكرار أدوات الاستفهام.

ولأن المبدع يدرك أن عملية التلقي لن تثمر إلا إذا كان مع متلقيه وحدة واحدة، يعبر عن إحساسه ومشاعره، وما ينتابه من صراعات أمام هذا الحدث

المشين، جاء تكرار "أي" في القصيدة، ليوضح ويرشد عن حالة المبدع التي هي فى الوقت نفسه حالة المتلقي، إزاء ما حدث لمدينة البصرة، يقول(١):

أيُّ نومٍ من بعد ما حل بالبصْـ .. ـرَةِ من تلكمُ الهناتِ العظام

أيُّ نومٍ من بعد ما انتهك الزَّنْ .. جُ جهارا محارم الإسلام

فالفجيعة والكارثة قد أرقت ليله، وأطالت سهره، وحرمت عينه لذيذ المنام، وجاء الاستفهام ليدل على استبعاد أن يغمض له جفن، أو يحلو له نوم أمام هذه الهنات العظام، حين انتهك الزنج جهرا محارم الإسلام دون وازع أو رادع.

وإذا كان النوم لا يحلو، فمن شدة الهول التي جعلت رأس الغلام تشيب في وقت يكون السواد الفاحم هو الغالب، يقول(٢):

أيَّ هَوْل رأوا بهمْ أيّ هَوْلٍ .. حُقَّ منه تشيبُ رأسُ الغلام

فكم تقدر هذه الأهوال التي أشابت رأس الغلام؟ ما مدى قسوتها وعنفها؟ ما الغير مألوف فيها حتى تحيل الرأس إلى مرحلة غير مألوفة للصبي؟

ثم يقف الشاعر متدبرا متأملا، ما الذي أدى بنا إلى تلك الحالة؟ أي أعذار نسوقها تبريرًا لما حدث ؟ يقول(٣):

---

(١) ديوان ابن الرومي جـ٣ ، ص٣٣٨ .

(٢) ديوان ابن الرومي جـ٣ ، ص٣٣٩ .

(٣) السابق ص٣٤١.

أيُّ عُـــذْرٍ لنـــا وأيُّ جـــوابٍ .. حـين نُـدْعَى عـلى رؤوسِ الأنـامِ

ومـن أدوات الاسـتفهام أيضـا التـي وردت في القصـيدة "مـن"، وقـد وردت في سياق شرح الشاعر وبيان وتفصيل حالة النساء، وما جرى لهن بين السبي والتوزيع كالسلع على الجنود، وذلك ليحض المسلمين على الدفاع عن شرفهم وحرمتهم ، يقول(١):

مـــن رآهُـــنَّ في المســـاقِ ســـبايا .. داميـــاتِ الوجـــوهِ للأقـــدام

مـن رآهـنَّ في المقاسـم وسْـطَ الـزْ .. نـــج يُقَسَّـــمْنَ بيـــنهمُ بالسِّـــهام

مـــن رآهُـــنَّ يتَخـــذن إمـــاءً .. بعـــد ملْـــكِ الإمـــاء والخُـــدَّام

فأن تكون النساء سبايا يدمى جسدها من وجهها حتى قدمها، وتقسم كالفيء بين الزنج، لتكون أمة بعد عز وملك، فإن الاستفهام خرج إلى معنى مجازى غرضه الإنكار على المسلمين أن يروا هذا المشهد ولا يهبوا للدفاع أو نجدة أغلى ما يحرصوا عليه عرضهم ونسائهم.

وعلى نفس النحو جاء الاستفهام "بأين" ليخرج إلى معنى مجازى، يعبر عما انتاب الشاعر من أحاسيس، حين يتساءل عما كانت عليه مدينة البصرة قبل أن يحدث لها هذا الخراب والتدمير، يقول(٢):

---

(١) السابق ص٣٣٩ .

(٢) ديوان ابن الرومي جـ٣ ، ص٣٤٠.

أيــن ضوضــاءُ ذلــك الخلــقِ فيهــا .. أيـــن أســـواقُها ذواتُ الرِّخـــام

أيــن فُلْــكٌ فيهــا وفُلْــكٌ إليهــا .. مُنشـــآتٌ في البحـــر كـــالأعلام

أيــن تلــك القصــورُ والــدورُ فيهــا .. أيـــن ذاكَ البنيـــانُ ذو الإحكـــام

فالاستفهام إنكار على الزنج أن يحولوا هذه الحضارة والتقدم إلى ركام وحطام، فأن تكون مدينة البصرة على هذا النحو من التقدم المعماري في بناء القصور وتشييد الدور، حتى الشوارع ذوات رخام، وأن تكون بهذا التقدم والنهضة الاقتصادية بموانيها. التي تستقبل وترسل، فإن الاستفهام يرشد عن نفس منكرة متحسرة على أن يتغير كل هذا بصراع دموع، لا يعي أن تمتد اليد التي بنت الحضارة بالمعول إليها لتنقضها وتحطمها.

- تكرار أداة الكثرة "رب".

وهل كان الشاعر في حاجة تكرار هذه الأداة "رب" ليؤكد على حقيقة ما حدث لمدينة البصرة؟ هل كان في حاجة إلى ذلك ليؤكد على خراب البصرة بعرض بانوراما متعددة المناظر والمشاهد لهذا التدمير؟

لعل كثرة الهموم هي العامل الأكبر وشغله الشاغل الذي دفعه لهذا التكرار، يقول ابن الرومي(١):

رُبَّ بيعٍ هناك قد أرخصُوهُ ∴ طال ما قدْ غلا على السُّوَّام

رُبَّ بيتٍ هناك قد أخرجُوهُ ∴ كان مأوى الضِّعافِ والأيتام

رُبَّ قصْرٍ هناك قدْ دخلوه ∴ كان من قبلِ ذاك صَعْبَ المرام

رُبَّ ذي نعمةٍ هناك ومالٍ ∴ تركوهُ مُخالفَ الإعدام

رب قوم باتوا بأجمعِ شَمْلٍ ∴ تركوا شملَهُمْ بغير نظام

فانظر إلى ما يريد الشاعر أن يؤكد على وقوعه بالتكرار، فما كان غال الثمن في ذاته أصبح سهلاً في الشراء على العامة والدهماء، وما كان مظهر رقى وحضارة وهو دار الأيتام والضعاف، قد أخرج منه أهله خوفا ورعبا، وما كان يصعب الدخول فيه إلا بعد الاستئذان، وقد يجاب طلبك أو يرفض، أصبح مشاعا للجميع.

(١) ديوان ابن الرومي جـ٣ ، ص ٣٣٩.

ثم انظر إلى هذا التحول الطبقي، فقد أصبح السادة فقراء أذلاء، وأصبح العبيد سادة أغنياء، وقد تحول اتحاد الناس وانتظام حياتهم بالقوانين إلى فوضى وتخبط، وسيادة لدولة الغاب، يستولى أصحاب السلطة والمنتمون إليها على كل الخيرات ومقدرات البلاد.

٢- تكرار الكلمة.

أ- تكرار الاسم

- تكرار اسم المرثي

ويكرر ابن الرومي اسم البصرة، مرة صراحة، وأخرى بأبرز ما يراه من ألقاب كانت تعبر عن واقع تلك المدينة في زمن الخلافة الإسلامية، وإذا كان تكرار الاسم عند المحبين استعذابا، وعند المدح إكبارا وتعظيما، فابن الرومي يكرره هنا، أسفا وحزنا على ما أصبح عليه حال البصرة.

لقد أدت الحالة الجديدة للبصرة إلى مفارقة النوم لعين الشاعر، لقد أطار لبه هذه المجازر الوحشية التي وقعت على يد الزنج، حين أشعلوا فيها الحرائق، وحولوها إلى أنقاض ودمار، وعلى إثر هذا الدمار أرق الشاعر في مضجعه، وغاب النوم عن عينه، يقول(١):

أيُّ نومٍ من بعد ما حل بالبصـ .. ـرَةِ من تلكمُ الهناتِ العظام

فهذه الهنات العظام أطارت النوم من عينه، فإذا ترفق البعض وطلب أن يريح نفسه بأخذ قسط من الراحة والخلود للنوم، استنكر عليه الشاعر هذا وتعجب، كيف ينام النائمون وتتلذذ أحضانهم بالنوم، وواقع البصرة على ما يرون؟

(١) ديوان ابن الرومي جـ٣ ، ص٣٣٨ .

ثم انظر إلى موضع آخر في القصيدة، تراه يصرح باسم البصرة، أسفا وحزنا، ثم يعضد هذا الأسف والحزن بذكر بعض الألقاب، التي تعين وتؤيد الشاعر على تألمه وتحسره من هذا الخراب والدمار، وهذه النيران التي أتت عليها، يقول(١):

لهفَ نفسي عليكِ أيَّتُها البصـ .. ـرةُ لهفاً كمثل لهْبِ الضِّرام

لهف نفسي عليك يا معدن الخيـ .. ـرات لهْفاً يُعضُّني إبهامي

لهف نفسي يا قُبَّةَ الإسـ .. ـلام لهفاً يطولُ منه غرامي

لهف نفسي عليكِ يا فُرضةَ البلـ .. ـدانِ لهفاً يبْقى على الأعوام

فالتلهف والتحسر على تلك النيران التي أضرمت، فأتت على الأخضر واليابس، ثم انظر إلى تلك الألقاب التي خلعها الشاعر مرتبطة بها، والتي تزيد من حسرات الشاعر وأناته، فالبصرة "معدن الخيرات، وقبة الإسلام، وفرضة البلدان" فأي صفات حوتها، وأي شرف نالت وحازت، فكانت لها الريادة، فحق للشاعر أن يئن ويبكى، ويخرج ويتلهف، ويتحسر ويتوجع.

- تكرار اسم الإشارة "هناك".

(١) السابق ص٣٣٩.

وقد جاء تكرار اسم الإشارة "هناك" ليدل على حقيقة نفس الشاعر المتألمة، فإذا كان اللفظ يحمل معنى البعد، لوجود الشاعر في بغداد، فإن البعيد فنيًا ينزل منزلة القريب، العزيز على النفس والقلب، خاصة إذا كانت له مكانة البصرة في نفوس وقلوب المسلمين، وما تعنيه للإسلام، يقول(١):

رُبَّ بيعٍ هناك قد أرخصُوهُ .. طال ما قدْ غلا على السُّوَّام

رُبَّ بيتٍ هناك قد أخرجُوهُ .. كان مأوى الضِّعافِ والأيتام

رُبَّ قصْرٍ هناك قدْ دخلوه .. كان من قبلِ ذاك صَعْبَ المرام

رُبَّ ذي نعمةٍ هناك ومالٍ .. تركوهُ مُحالفَ الإعدام

فتكرار "هناك" دل على عظمة وعلو شأن، فكانت البصرة عاصمة إنسانية، ترعى حقوق الضعاف والأيتام، وكانت قصورها دليل عظمة وتقدم معماري، كانت درة ثمينة غالية، يصعب شراؤها، ولكن أين هي من هذا الآن؟ لقد أصبح أهلها على حالة جديدة من البؤس والفقر، بعد أن هدفها الزنج وخربوها الخراب العظيم.

ب- تكرار الفعل.

وإذا كان رثاء المدن يعبر عن وثيق الصلة بماضي الأمة وحاضرها، والتغيرات الجذرية التي أصابتها، وما كانت عليه وما آلت إليه، فجاء التعبير بالأفعال ملائما لذلك، لأن الأفعال تدل على التجدد والحدوث، فقد ذكر ابن الرومي الأفعال، سواء

(١) ديوان ابن الرومي جـ٣ ، ص٣٤٠.

كان التكرار بلفظ الفعل أو مبناه، من الأمر والماضي والمضارع.

وحتى يؤتى عمل المبدع أكله، فلابد أن يجعل المتلقي يعيش معه ما يصف ويتحدث عنه، فلابد من المشاركة الوجدانية ومشاركة الرؤية حتى يتم التأثير، ويتحقق ما ينشده الشاعر، ومن أجل ذلك كرر ابن الرومي الفعل "رأى" فكأنه والمتلقي للحدث يقفان ليعاينا وشاهدا ما حدث لنساء البصرة، وما يحدث لهن على يد الزنج، يقول(١):

من رآهُنَّ في المساقِ سبايا .. داميـاتِ الوجـوهِ للأقـدام

من رآهنَّ في المقاسم وسْطَ الزْ .. نـج يُقَسَّمْنَ بينهمُ بالسِّهام

من رآهُنَّ يتَخذن إماءً .. بعد ملْكِ الإماء والخُدَّام

فانظر إلى مأساة هؤلاء النساء بعد تبدل حالهن كما تبدل حال البصرة، فبعد العز الذل، وبعد المكانة والمنزلة، الانحطاط وقلة الشأن، لقد عمد الشاعر إلى هذا الوصف المتكرر، ليدعو النخوة والشرف العربي أن يثورا في وجه هؤلاء المعتدين، ليوقفا هذه الهمجية والوحشية.

ويكرر الشاعر الفعل "سأل"، فيسأل البصرة وما فيها، لكن كيف يجيب ما تهدم وتحطم وماتت فيه كل مظاهر الحياة؟ هل يجيب الميت إنسانا من جنسه وعلى شاكلته؟

يقول ابن الرومي وهو يسأل البصرة، بعد أن طلب من أصحابه العروج

(١) ديوان ابن الرومي جـ٣ ص٣٣٩ .

عليها، والوقوف على أطلالها وسؤالها، ولكنها أعيت جوابا وما بالربع من أحد(١):

عرِّجا صاحبيَّ بالبصرة الزَّهْـ .. ـراء تعريج مُدنف ذي سقام

فاسْألاها ولا جوابَ لديها .. لسؤال ومن لها بالكلام

فهل عدم الإجابة لخرابها وعدم وجود أجدابها؟ أو هي الخجلى مما حدث لها بعد أن أخذ الزنج أهلها على غفلة وهم نيام فلم يستعدوا؟ أو يكون عدم الإجابة اعتراضا على عدم استعداد أهل البصرة للدفاع عنها والحيطة والحذر لما يحاك بها؟

ثم يخص ابن الرومي المسجد الجامع في البصرة بالسؤال، لعله يلتزم سلوك الإسلام، فيصف ويتحدث ويكشف، ولكن كان الحال مثل البصرة كلها، فلا جواب لديه، يقول(٢):

بل ألِمَّا بساحةِ المسجدِ الجا .. مع إنْ كُنْتُما ذَوِي إلمام

فاسألاهُ ولا جوابَ لدْيهِ .. أين عُبَّادهُ الطوالُ القيام

فعدم الإجابة دليل على أن حاله يغنى عن كلامه، فقد تهدم وتحطم، وهجره العباد الذين كانوا يعمرونه بالقيام وتلاوة القرآن.

ثم انظر إلى تكرار فعل الأمر من خلال مبناه وليس لفظه، لما يحمل من

(١) ديوان ابن الرومي جـ٣ ، ص٣٤٠.

(٢) السابق ص٣٤٠ .

دلالات، تدل على نفس الشاعر، وتشرح موقفه .

يقـــــول(١):

انفـــروا أيهـــا الكـــرام خفافـــاً ∴ وثقـــالاً إلى العبيـــد الطغـــام

أدْرِكـــوا ثـــأْرَهُمْ فـــذاك لـــديْهِم ∴ مثـــلُ ردِّ الأرواحِ في الأجســـامِ

أنقِـــذُوا سَـــبْيُهُمْ وقـــلَّ هُـــمْ ذا ∴ ك حفاظـــاً ورعْيَـــةً للـــذِّمام

بـــادروهُ قبـــلَ الروَّيـــةِ بـــالعَزْ ∴ م وقبـــل الإسراج بالإلجـــام

لا تطيلـوا المقـام عـن جنَّـة الخلـ ∴ ـــدِ فـأنتمْ في غـير دار مُقـام

فاشـتروا الباقيـات بـالعرض الأد ∴ نـى وبِيعـوا انقطاعـه بالـدَّوام

فـإذا نظرنـا إلى ترتيـب المبـدع للأفعـال الثلاثـة الأولى "انفـروا"، "أدركـوا"، أنقـذوا "تجد" الترتيـب في الاسـتعداد، لإنقـاذ البصـرة وأهلهـا، فـالنفرة الخـروج لإدراك مـا يمكـن إدراكه قبل أن يعم الخراب، وإنقاذ شمس الحضارة قبل أن تغرب عن دولة الإسلام.

ثم أعاد المعنـى مـرة ثانيـة مـن خـلال مبنـى أفعـال الأمـر الثلاثـة التاليـة "بـادروا، لا تطيلـوا اشـتروا" فالمبـادرة المباغتـة دون الإطالـة في الاسـتعداد، حتـى لـو كانـت حيـاتهم مقابل المحافظة على العرض والأرض.

(١) ديوان ابن الرومي جـ٣ ، ص ٣٤١.

٣- التكرار المركب وأثره الدلالي.

وهو ما يكون جملة فعلية أو جملة اسمية، وقد كرر ابن الرومي جملة فعلية دلت على حقيقة نفسه، فقد أضرم الزنج النار في قلبه مما ارتكبوه من أهوال وفظائع، بل تسببوا له في الآلام التي تركت غصة ومرارة في حلقه، لا تذهب بتجدد الأيام وحدوث الحوادث، يقول(١):

ما تذكرتُ ما أتى الزنج إلاَّ .. أُضرم القلب أيّما إضرام

ما تذكرتُ ما أتى الزنج إلاَّ .. أوجعْتَني مرارةُ الإرغام

فالتذكر دائم بالمضارع، وهو يدل على حدث وزمن ، فكان الحدث الذي أحدثه الزنج، يتجدد بدوام الأيام ودوران الأزمان، وما ذلك إلا لخروجه على المألوف ونتائجه .

٤ - التكرار البديعي.

ولتكرار البديع مقاصد فنية، وإرشاد عن نفسيته، وتوضيح وبيان دخيلة الشاعر، يصور به التغيرات، ويفسر به حقائق ، ويجلو غشاوة عن أعين .

أ- الجناس:

حزن ابن الرومي لما حدث لمدينة البصرة، فقد أقعده الهم والغم، وتأزمت نفسه، وخاب أمله، وما ذلك إلا بفعل الزنج في أهل المدينة، لقد فاق ما قاموا به من أعمال حدود العقل وإدراكه، فكان من أثر ذلك قوله(٢):

---

(١) السابق ص٣٤٠.

(٢) ديوان ابن الرومي جـ٣، ص٣٣٩ .

طلعُـوا بالْمُهَنَّـداتِ جِهْـراً فألقـتْ .. حملهـا الحـاملات قبـل الـتَّمام

فـأي فعـل فعلـوه يشـبه يـوم القيامـة، حـين تـذهل المرضـعة عـن رضـيعها، وتضـع ذات الحمل حملها قبل تمامه؟

ويعـدد الشـاعر المشـاهد، ويكـرر اللوحـات التـي تـدل عـلى همجيـة الـزنج، فيقول(١):

كـم أخٍ قـد رأى أخـاهُ صريعـاً .. تِـربَ الخَـدِّ بـينَ صَرْعـى كـرامِ

فـدل الجنـاس عـلى كثـرة وتنـوع مـن طـالتهم يـد القتـل، فخـروا صرعـى في ميـدان القتال.

ب- التصريع.

وهـو "جعـل العـروض مقفـاة تقفيـة الضرـب، وهـو مـا استحسـن حتـى إن أكثـر الشـعر صرع البيـت الأول منـه"(٢) واسـتخدام التصرـيع في قصـيدته، مراعـاة منـه لمتلقيـه، حين يريـد إفادتـه بمعرفـة قافيـة البيـت قبـل تمامـه، ومـن جهـة أخـرى يريـد إطرابـه بزيـادة الموسيقى على موسيقى الـوزن والقافيـة، ومـن جهـة المبـدع يريـد أن يـدل عـلى سـعة قدرتـه في فنون الكلام.

وعلاقة التصرـيع بـالتكرار تـبرز بوضـوح مـن خـلال "أنـه مبنـى عـلى التكـرار، فهـو

(١) السابق ص٣٣٩.

(٢) الإيضـاح في علـوم البلاغـة الخطيـب القزوينـي- تحقيـق د/ محمـد عبـد المـنعم خفـاجي، ط دار الكتاب اللبناني ط٦- ١٤٠٥هـ/ ١٩٥٨م ص ٥٥١.

مضبوط بتكرار حرف معين ينتهي به صدر البيت وعجزه"(١).

انظر إليه في مفتتح قصيدته يقول(٢):

ذادَ عـــن مُقْلِتـــي لذيـــذَ المنـــامِ .. شُـــغلها عنـــهُ بالـــدموعِ الســـجامِ

فـأن يجتمـع عـلى الشـاعر دفـع النـوم عـن عينـه، وعـدم اقترابـه، وانهـمار الـدموع الساخنة الغزيرة، فما ذلـك إلا مـن هـول مـا رأى مـن الفظـائع التـي ارتكبهـا الـزنج في حـق الإنسان والحضارة.

جـ- رد العجز على الصدر.

ولهـذا النـوع البـديعي ألـوان وأنـواع متعـددة، عمـد إليهـا ابـن الرومـي، ليحقـق أهدافا أو أغراضا، تخص هذا اللون، مثل اكتمال المعنى، أو بيانه، أو تحقيقه.

ومن ذلك قول ابن الرومي عن الورَّزْيتنى صاحب الزنج(٣):

أقـــدم الخـــائنُ اللعـــينُ عليهـــا .. وعـــــلى الله أيَّـــــما إقـــــدام

فما الذي أقـدم عليـه؟ إنهـا الأمـور الحقيقيـة والأحـداث التـي جـرت، وكـان الشـاعر يعتقـد أنهـا لا تكـون إلا خيـالاً في منامـه لقسـوتها، وصـعوبة تحققهـا عـلى أرض الواقـع، ومن ثم كان تأكيد الإقدام، ليحول الحدث الخيالي إلى حدث حقيقي.

ومـن ثـم ونتيجـة الجـرائم التـي ارتكبهـا في حـق النـاس، فإنـه لا يصـلح أن يكـون

---

(١) التكـرار في شـعر الخنسـاء، د/ عبـد الـرحمن الهليـل- المؤيـد الريـاض- ط الأولى١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص ١١١ .

(٢) ديوان ابن الرومي جـ٣، ص٣٣٨ .

(٣) السابق ص٣٣٩ .

إماما لهم، يقول(١):

وتسمى بغير حقٍّ إماماً .. لا هدى اللهُ سعيه من إمام

ويبين ابن الرومي سبب عدم تسميته إماما، فيسوى لنا مشاهد متنوعة مما ارتكبها في حق الشعب، الذي لن يقبل أن يكون حاكمه وقد وقع منه ذلك، ولا ينطبق عليه أساسا صفات الإمام للناس، يقول(٢):

كم رضيع هناكَ قد فطموه .. بشبا السيف قبل حينِ الفطام

فأن يعظم قبل موعده، وبالسيف فقد سكتت الروح البريئة إلى الأبد، وانتهت صلتها بالواقع، وما أبشعها من صورة ومنظر، حين يذبح وليد في مهده.

ولهذا الوليد القتيل وغيره من سائر طبقات المجتمع، يدعو ابن الرومي لهم بالرحمة والمغفرة ودخول الجنة، يقول(٣):

وعليها من المليك صلاةٌ .. وسلامٌ مؤكَّدٌ بسلام

ويوضح الشاعر كيف استعد هؤلاء المعتدين، وأبرموا أمرهم بليل، حتى يأخذوا الناس على غرة، وهو بهذا يدعو الغافلين إلى الانتباه لما يحاك بالأمة من

(١) ديوان ابن الرومي جـ٣ ،ص٣٣٩ .

(٢) السابق ، ص٣٤١ .

(٣) السابق، ص٣٤١ .

دسائس ومكائد، يقول(١):

أبْرمَــوُا أمــرهُمْ وأنــتُمْ نِيــامٌ .. ســوءةً ســوءةً لنــوْمِ النيــام

فـالإبرام الإحكـام، وإذا كـان إحكامـك قـد يخيـب أو يصـيب، فـما بالـك وقـد كـان مـع الإحكـام تأكيـد النـوم والتلـذذ بـه، وعـدم التنبـه والاسـتعداد لمـا يحـاك بـك، فكانـت الطامة الكبرى.

ويعاتب الشاعر من تنبه، وكان في مقدوره الدفاع والحماية، يقول(٢):

وانـدامي عـلى التَّخلُّـفِ عـنهمْ .. وقليـل عـنهُم غنـاء نِـدامي

ويتمنـى الشـاعر أن تمحـى كـل تلـك الأحـداث مـن ذاكرتـه، وأن ينسـى مـا فعلـه الزنج بالمدينة والناس، لأن التذكر يجلب له الشقاء والتعاسة، يقول(٣):

مـا تـذكرتُ مـا أتـى الـزنج إلاَّ .. أُضرم القلـــب أيّـــما إضرام

د- الطباق .

وطبعـى أن يكثـر الطبـاق الـذي يعكـس الصـور المتناقضـة في قصـيدة ابـن الرومـي، فيوضح نفسـيته، ويشرـح ذاتـه، ويبـدأ بتوضـيح اضـطراب نفسـه مـن أثـر الهجـوم بـالنيران

(١) ديوان ابن الرومي جـ٣ ص٣٤٢ .

(٢) السابق ص٣٤١ .

(٣) السابق ص٣٤٠ .

الذي أحاط بالناس من كل اتجاه ، يقول(١):

إذ رمـوْهُمْ بنـارهم مـن يمـينٍ .. وشِـــمال وخلفِهـــمْ وأمـــام

(فـاليمين والشـمال)، "والخلـف والأمـام" "تعنـى الإحاطـة والشـمول مـن كـل اتجاه، فهل ينجو من هذا الحريق أحد؟

"وهنـاك سـؤال يطـرح نفسـه : مـا هـو السـبب الرئيسي لهـذه التلهفـات والحسـرات للشاعر؟ فابن الرومـي بنفسـه يقـوم بالإجابـة عـن السـؤال في هـذه القصـيدة بأجمعهـا، فـإن ما زاد هذه الحالة اضطرابا ما كانت عليه البصرة، يقول(٢):

أيـن فُلْـكٌ فيهـا وفُلْـكٌ إليهـا .. مُنشـآتٌ في البحـر كـالأعلام

"ففلك فيها وإليها" أي تـدخل مواتيهـا وتخـرج ، ممـا يـدل عـلى أهميتهـا كمركـز مـن مراكز التجارة الرئيسة الهامة في العالم آنذاك، مما يوحى بالرقى والتقدم.

ولـيس العنصر المـادي فقـط سـبب حـزن الشـاعر واضـطراب نفسـه، وإنـما العنصر البشرى الذي تعرض للقتل والإحراق والتشريد، يقول(٣):

أيـن فِتيانـه الحِسـانُ وجُوهـاً .. أيـن أشـياخُهُ أولـو الأحـلام

وهكـذا تـنهض الأمـم بقـوة وعزيمـة "فتيانهـا"، وبرجاحـة وتفكـير "شـيوخها"

(١) السابق ص٣٣٩ .

(٢) ديوان ابن الرومي جـ٣ ص٣٤٠ .

(٣) السابق ص٣٤١ .

فيجبر هذا نقص وخلل ذاك ، فتسود بعقلها وقوتها.

وإذا أخذ الزنج هذا التقدم البشرى والمادي خلسة، وعلى حين غرة، فأحدثوا الدمار والخراب، وساء التخبط، فإن الشاعر يدعو الجميع إلى الوحدة والتكاتف للخروج إلى هؤلاء الزنج العبيد، يقول(١):

انفروا أيها الكرام خفافاً .. وثقالاً إلى العبيد الطغام

فالنفرة على قدر العزيمة، ومهارة كل شخص في الخروج متخففا إلا من السلاح الذي يجيد، أو ثقالا" يحمل معه أنواعا متعددة يجيد استخدامها.

وإذا أدى كل واحد ما عليه في سبيل استرداد عزته وكرامة وطنه، فإنما يفعل ذلك متمثلا قول ابن الرومي(٢):

فاشتروا الباقيات بالعرض .. نى وبِيعوا انقطاعه بالدَّوام الأد

فالشراء لبقاء ما كانت عليه البصرة من مكانة ومنزلة، وحضارة سامية، والبيع لهذه المرحلة الانتقالية التي انقطع فيها هذا التواصل الحضاري، بما أحدثه الزنج من أفعال إجرامية.

٥- تكرار المعاني.

ويبدأ الشاعر بتكرار فكرة استحالة اقتراب النوم من عينه ولو جاء سنة أو

(١) السابق ص٣٤٢ .

(٢) ديوان ابن الرومي جـ٣ ص٣٤٢ .

غفلة جاء معيبا أو ناقصا، يفقد أهم مزية النوم، وهى التمتع بلذته، يقول(١):

أيُّ نـومِ مـن بعـد مـا حـل بالبصْـ ∴ ـرَةِ مـن تلكـمُ الهنـاتِ العظـام

أيُّ نومِ مـن بعـد مـا انتهـك الزَّنْـ ∴ ـجُ جهـارا محـارم الإسـلام

والـذي أدى إلى تكـرار اسـتبعاد النـوم وعـدم اسـتعذابه، هـذه المعـاني المتكـررة التـي تدل على عظمة هذا الذي حرم العين لذيذ المنام، يقول(٢):

لهـفَ نفسـي عليـكِ أيَّتُهـا البصـ ∴ ـرةُ لهفـاً كمثـل لهْـبِ الضِّرـام

لهـف نفسـي عليـك يـا معـدن الخيـ ∴ ـرات لهْفـاً يُعضُّـني إبهـامي

لهـف نفسـي عليـكِ يـا فُرضـة البلـ ∴ ـدانِ لهفـاً يبْقـى عـلى الأعـوام

لهـف نفسـي لجمعـكِ المتفـاني ∴ لهـف نفسـي لِعِـزكِ المُستضـام

وإذا كـرر المعنـى في الحـديث عـن المكـان، راح يكـرر المعـانى عـما يضـمه المكـان مـن حي وجماد .

وإذا نظرنـا إلى تكـرار المعنـى حـول البشرـ الأحيـاء الـذين يسـكنون مدينـة البصرـة، ومـا وقـع لهـم عـلى يـد الـزنج، حيـث لم يفرقـوا في هجـومهم بـين مـن يقتلـون ، نـراه

(١) السابق ص٣٣٨ .

(٢) السابق ص٣٣٩ .

يقول(١):

كـــم أخٍ قـــد رأى أخـــاهُ صريعـــاً ∴ تِـربَ الخَـدِّ بـينَ صَرْعـى كـرامِ

كـــم أبٍ قـــد رأى عزيـــزَ بنيـــه ∴ وهْـــوَ يُعـــلَى بصـــارمِ صمصـــام

كـــم رضـــيع هنـــاكَ قـــد فطمـــوه ∴ بشبا السـيف قبـل حـينِ الفطـام

كـــم فتـــاة بخـــاتم الله بكـــر ∴ فضـــحوها جهـــر أبغـــير اكتتـــام

كـــم فتـــاة مصـــونة قـــد ســـبوْها ∴ بـــارزاً وجههـــا بغـــير لثـــام

وأما تكـرار المعنـى حـول مـا حـدث مـن خـراب وتـدمير للجـماد ، فمـثلا فى كـل مـا أنتجته يد الإنسان المتحضر، فيقول عنه(٢):

أين تلك القصـورُ والـدورُ فيهـا ∴ أيـــن ذاكَ البنيـــانُ ذو الإحكـــام

بـــدِّلتْ تِلكُـــمُ القصـــورِ تِـــلالا ∴ مـــن رمـــادٍ ومـــن تُـــراب رُكـــامِ

سُـــلِّطَ البَثْـــقُ والحريـــقُ علـــيهم ∴ فتـــداعت أركانُهـــا بانهـــدامِ

(١) ديوان ابن الرومي جـ٣ ص٣٣٩ .

(٢) السابق ص٣٤٠ .

وخلتْ من حُلولها فهْي قَفْرٌ .. لا ترى العين بين تلك الأكام

فابن الرومي يكرر وصف هدم القصور وحرق أركانها، التي كانت قبل الهجوم على عزة وبنيان قوى، ولكنها أصبحت تلالا من الركام والتراب بعد أن هدمها الزنج ، موضحا بعض الآلات الحربية المستخدمة، وهى البثق الذي يشبه المنجنيق.

الخاتمـــة

وفى ختـام تلـك الدراسـة يجمـل بنـا أن نحيـل القـارئ الكـريم إلى أهـم النقـاط التـي ظفرنا بها من خـلال البحـث (تجليـات التكـرار في قصـائد مختـارة مـن رثـاء المدينـة الخريمـي وابن الرومي أنموذجا) على أن نترك ما قـد يـراه فيهـا مـن أمـور، قـد تكـون ملمحـا جديـدا ورؤيـة جديـدة، وأهـم مـا انتهـت إليـه هـذه الدراسـة مـن نتـائج ترتبـت عـلى دراسـة القصـيدتين، ومـن ملامـح فنيـة ومضـمونية، تلتقـي القصـيدتان فـيهما، ومـا قـد تختلفـان فيهما مـن حيـث رؤيـة الشـاعرين للحـدث، ومـدى انفعـال كـل مـنهما مـع حدثـه، وإجـادة كل منهما في التعبير عنـه وتوظيـف التكـرار توظيفـا جيـدا يخـدم كـل عنـاصر الفـن الشـعري في قصيدتهما، إضافة إلى مـا قـد يلتقـي فيـه الشـاعران مـع شـعراء رثـاء المـدن بشـكل عـام في بعض الجوانـب المضـمونية والفنيـة، مـن هـذا كلـه خرجـت الدارسـة بعـدة نتـائج تتمثـل في الآتي:

١) أظهـرت الدراسـة أن التكـرار اللفظـي بأنواعـه "حـرف، وأداة، وكلمـة، وتركيـب" كـان الصـورة الأكثـر شـيوعا وانتشـاراً، وقـد صـحب تكـرار الألفـاظ تجـدد في المعـاني والأفكار المصاحبة له.

٢) يـأتي التكـرار أحيانـا في بدايـة الأبيـات، وهـو مـا يعـرف بـالتكرار الاسـتهلالي وفى هـذا تنبيه من قبـل الشـاعر عـلى أهميـة المكـرر، وجـاء هـذا النـوع بصـوره المختلفـة، مثـل تكـرار حرف وأداة واسم وفعل وتركيب.

٣) بينـت الدراسـة أهميـة التكـرار بوصـفه وسـيلة تعبيريـة في توضـيح خبايـا الـنص الشعري، والكشف عـن ثقافـة الشـاعر، وحالتـه النفسـية، فكـان التكـرار انعكاسـا لمواقـف الشاعر الفكرية الواضحة، وعاطفته الصادقة المتأججة.

٤) كان التكـرار عنصرا مهـما في أنحـاء قصـائد رثـاء المـدن، موضـوعياً وجماليـاً، وإيقاعيـاً،

وتجاوز أن يكون عنصراً لفظياً لا يؤدى وظائف في بناء القصائد.

٥) احتفل غالبية شعراء رثاء المدن بالتصريع في بداية قصائدهم لما يفيد المتلقي في معرفة قافية البيت قبل تمامه، ولأنه يولد جرساً موسيقياً منتظما يتصاعد مع وسائل الإيقاع الأخرى في القصيدة ليمنحها مزيداً من التناغم الموسيقي المؤثر في النفس، ولكن الخريمي لم يلجأ إليه ولم يستخدمه في قصيدته، ربما لأنه غير معنى في المتلقي بهذين الجانبين، اللذين عمدا غيره إليهما، وإنما هو معنى بالمتلقي في إثارة مشاعره وتحريك أحاسيسه عن طريق تصوير بغداد في أسلوبين مغايرين، يرى منهما الحقيقة واضحة، فيعمد إلى إثارة عقله ليدرك ويعي أهمية ما كانت عليه ويستفز مشاعره بما أصبحت عليه.

فالخريمي يرى في تصوير أثار النعم ومظاهر الحضارة والسيادة وتصوير صور رائعة مؤثرة في العقل والنفس لمشاهد ولوحات مختلفة للأهوال والدمار والخراب لبغداد، تتعاضد هذه الصور في دغدغة مشاعره، واستفزاز أحاسيسه فيئول إلى صوابه، ولا يعود إلى أسباب هلاكه ودماره في كل العصور ومختلف الأزمان .

وبعد أرجو من الله تعالى أن يحالفني السداد والتوفيق في بحثي هذا وأن يكون مسار نفع لطلاب العلم، وحسبي أنى اجتهدت وأخلصت العمل قصارى جهدي، وما توفيقي إلا بالله، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الباحث

المصادر والمراجع

١- ابن الرومي حياته من شعره – عباس العقاد- ط مكتبة السعادة - القاهرة- ١٩٥٧م.

٢- ابن الرومي- الشاعر المجدد. ركان الصفدى- ط الهيئة العامة السورية للكتاب- ٢٠١٣م.

٣- ابن الرومى فى الصورة والوجود. د/ على شلق، دار النشر للجامعين- بيروت الطبعة الأولى ١٩٦٠م.

٤- ابن الرومي ملامح وأبعاد. د/ على شلق- ط الشركة الشرقية- بيروت- لبنان- ١٩٦٩م.

٥- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري. د/ محمد مصطفى هدارة، ط دار المعارف القاهرة ١٩٦٣م.

٦- الأدب الأندلسي- بين التأثر والتأثير- د/ محمد رجب البيومي، ط المجلس العلمي جامعة الملك محمد بن سعود- دار الثقافة والنشر- السعودية، ١٩٨٠م.

٧- أدب المقاومة . د/ غالى شكري- الطبعة الثانية ، بيروت، ١٩٧٩م.

٨- أنوار الربيع في أنواع البديع ابن معصوم المدني تحقيق/ شاكر هادى شكر- الجزء الخامس- طبعة النجف- مطبعة النعمان ١٩٦٩م.

٩- الإيضاح في علوم البلاغة الخطيب القزويني- تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجي، ط دار الكتاب اللبناني ط٦- ١٤٠٥هـ/ ١٩٥٨م .

١٠- التكرار في شعر الخنساء، د/ عبد الرحمن الهليل- المؤيد الرياض- ط الأولى١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م .

١١- التكرير بين المثير والتأثير د/ عز الدين السيد، ط دار الطباعة المحمدية ط الأولى ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .

١٢- الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم. حنا الفاخوري، مكتبة تونس ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م .

١٣- ديوان ابن الرومي شرح أحمد حسن بسج، الجزء الثالث ، ط دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- الطبعة الثالثة- ٢٠٠٢م.

١٤- ديوان الخريمي. جمعه وحققه / على جواد الطاهري ومحمد جبار المعيبد ط دار الكتاب الجديد بيروت- ط الأولى- ١٩٧١م.

١٥- الشعر في الحاضرة العباسية في القرنين الثاني والثالث الهجري. وديعة طه نجم- ط دار السياسة الكويت- الأولى ١٩٧٧م.

١٦- العمدة في محاسن الشعر في آدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، الطبعة الثانية، تحقيق/ محمد محي عبد الحميد- ط المكتبة التجارية- ١٩٦٣م.

١٧- الفنون البديعية في دائرة البحث البلاغي. د/ فوزي السيد عبد ربه- مطبعة الحسين الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

١٨- في الأدب العباسي الرؤية والفن د/ عز الدين إسماعيل، طبعة دار النهضة العلمية، بيروت، ١٩٧٥م.

١٩- القاموس المحيط للفيروزآبادي- الجزء الثاني ط دار الجيل- بيروت- ١٩٩٥م.

٢٠- قضايا الشعر المعاصر نازك الملائكة ط دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٩٨٣م.

٢١- من فنون الشعر العباسي. د/ حبيب السيد أبو جمعة، ط٣- ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

الدوريات

١. إضاءات نقدية "مقال رثاء ابن الرومي بين الإتباع والابتداع، قصيدة البصرة نموذجا" على أصغر حبيبي السنة العدد الثالث- ١٣٩٠ه / أيلول ٢٠١١م.
٢. مجلة التراث العربي مقال "المؤثرات البيئية والشخصية في شعر ابن الرومي- د/ محمد عبد القادر أشقر التراث العربي- سوريا- العدد رقم ٩٩- ١٠٠ ، يوليو ٢٠٠٥م.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
- مقدمة	
- توطئة	
- مدح المدن	
- هجاء المدن	
- رثاء المدن	
- المبحث الأول: نظرات تحليلية في القصيدتين	
١- قصيدة الخريمي في رثاء بغداد	
٢- قصيدة ابن الرومي في رثاء البصرة	
-المبحث الثاني: مستويات التكرار في القصيدتين	
أولا: مستويات التكرار في قصيدة الخريمي	
١- تكرار الصوت وأثره	
أ- تكرار الحرف	
ب- تكرار الأداة	
٢- تكرار الكلمة وأثره	
أ- تكرار الاسم	
ب- تكرار الفعل	
ج- تكرار ألفاظ الموت	
٣- التكرار البديعي وأثره	

أ- الجناس	
ب- رد العجز على الصدر	
ج- الطباق	
٤- تكرار الصور	
ثانيا: مستويات التكرار في قصيدة ابن الرومي	
١- تكرار الصوت	
أ- تكرار الحرف	
- حرف المد	
- حرف النداء	
ب- تكرار الأداة	
- تكرار "كم" الخبرية	
- تكرار أدوات الاستفهام	
- تكرار أداة الكثرة رب	
٢- تكرار الكلمة	
أ- تكرار الاسم	
ب- تكرار الفعل	
٣- التكرار المركب وأثره الدلالي	
٤- التكرار البديعي	
أ- الجناس	
ب- التصريع	
ج- رد العجز على الصدر	

د- الطباق	
٥- تكرار المعاني	
- الخاتمة	
- المصادر والمراجع	
- الفهرس	